الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الرحمان ميرة – بجاية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة :

تيمة المنفى في رواية "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني

مذكرة مقدمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة و الأدب العربي.

تخصص : أدب عربي حديث و معاصر .

إعداد الطالبتين :

- أيت عبد المالك ثفاث .
- أيت إخلف صونيا .

إشراف الأستاذ :

الحبيب عمي .

السنة الجامعية : 2021/2020 .

مقدمة

احتلت الرواية الفلسطينية مكانة بارزة بين نظائرها من الروايات العربية . و قد اقترنت الرواية بنفس الخط مع الواقع الذي شهدته فلسطين عام 1948 . فقد عالجت الواقع الفلسطيني بشكل واضح . و ألقت قضية المنفى التي عرفها كل فلسطيني بظلالها على الرواية الفلسطينية . حيث أن الفلسطيني جسد صورة المنفيّ بامتياز ، فمنهم من نُفي خارجها ، و منهم من نُفي داخل مُدنها . و يمكن القول إنه حتى أعمدة الرواية الفلسطينية عانوا من فعل النفي و التهجير ، و بالتالي انعكست هذه التجربة على أعمالهم ؛ فقد عالجت أعمالهم الإبداعية قضية المنفى ، فعبّروا عن تجارب الضياع و البحث عن وطن بديل ، فسخّروا أقلامهم للمقاومة الوطنية ، فوقفت أقلامهم ندّا أمام سياسة طمس و تدمير الهوية الفلسطينية و الثقافة الفلسطينية ، فجعلوا من الكلام سلاحا مزعجا أمام العدو . و قد كان غسان كنفاني من بينهم . فهو أحد أعمدة الرواية الفلسطينية ، و ظل حتى يومنا هذا هرما في بحر الإبداع الفلسطيني ، فقد تربع على عرش الرواية الفلسطينية . و حملت إبداعاته الأدبية القضية الفلسطينية على عاتقها ، فتناولت الواقع الفلسطيني بحذافيره ، و عالجت موضوع المنفى .

و في مذكرتنا هذه اخترنا دراسة المنفى في رواية ' عائد إلى حيفا ' لغسان كنفاني ، فجاء عنوان دراستنا على النحو التالي " تيمة المنفى في رواية 'عائد إلى حيفا' لغسان كنفاني " .

و الخطة التي اعتمدنا عليها خلال دراستنا هذه هي : مقدمة و فصلين ، و أنهيناها بخاتمة ثم ملخص للرواية .

فالفصل الأول عنوانه "حضور المنفى في الشعر العربي و النثر العربي ، جاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث ، و كل مبحث بدوره تفرع إلى ثلاث عناصر ، المبحث الأول ضبط المفاهيم (مفهوم المنفى – مفهوم الغربة – مفهوم الحنين) . المبحث الثاني تيمة المنفى في الشعر العربي (تيمة المنفى في الشعر العربي الجاهلي المقدمة الطللية – تيمة المنفى في الشعر الأندلسي الحنين إلى الأوطان – تيمة المنفى في الشعر العربي الحديث) ، المبحث الثالث تيمة المنفى في النثر العربي (تيمة المنفى في الرواية العربية – تيمة المنفى في الرواية الفلسطينية – تيمة المنفى في بعض روايات غسان كنفاني).

و أما الفصل الثاني فعنوانه " زمكان المنفى في رواية عائد إلى حيفا " ، و جاء في أربعة مباحث ، المبحث الأول غسان كنفاني حياته و أعماله (حياة غسان كنفاني الشخصية – حياة غسان كنفاني العملِية – أعمال غسان كنفاني الأدبية) ، المبحث الثاني زمن الرواية (مفهوم الزمن – آليات الزمن – زمن رواية عائد إلى حيفا)

، المبحث الثاني مكان الرواية (مفهوم المكان – مكان رواية عائد إلى حيفا) ، المبحث الثالث زمكان المنفى في رواية عائد إلى حيفا .

أما الخاتمة فقد كانت عبارة عن بعض النقاط المهمة التي توصلنا إليها خلال هذه الدراسة .

و قد كان زادنا في هذا البحث مجموعة من المصادر و المراجع ، من معاجم كلسان العرب لابن منظور ، و دواوين شعرية ، و كتب مثل كتاب الحنين و الغربة في الشعر العربي الحنين إلى الأوطان ليحيى الجبوري ، و كتاب ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية غسان كنفاني إميل حبيبي جبرا إبراهيم جبرا لفاروق وادي ، و كتاب سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام 1967 لمحمد الشحات ، و غيرها من الكتب ، و كتاب 'سرديات المنفى' قد اعتمدنا عليه بشكل كبير خلال بحثنا . كما اعتمدنا أيضا على دراسات سابقة ، كدراسة مريم جبر فريحات التي عنوانها " الحس الاغترابي في أعمال رواية لغسان كنفاني " .

و من بين الصعوبات التي وقفت في وجه سيرورة البحث ، ندرة بعض الكتب ، و منها مالم نتحصل عليها ، مثل كتاب غسان كنفاني جماليات السرد في الخطاب الروائي لصبحية عودة زعرب .

و في الأخير نتقدم بخالص الشكر و وافر التقدير إلى الأستاذ ' الحبيب عمي' الذي تعب معنا كثيرا طول فترة بحثنا ، فقد ساعدنا على السير في طريق البحث ، و كان خير معين بعد الله عز و جلّ ، فقد قادنا على الدرب الصحيح و تتبع أخطاءنا . و نرجو بهذا البحث البسيط و المتواضع أن نكون قد أضفنا و لو جزء ضئيل في تحقيق أهداف هذه الدراسة .

الفصل الأول

الفصل الأول :

حضور المنفى في الشعر العربي و النثر العربي .

1 – ضبط المفاهيم .

1 – 1 – مفهوم المنفى .

1 – 2 – مفهوم الغربة .

1 – 3 – مفهوم الحنين .

2 – تيمة المنفى في الشعر العربي .

2 – 1 – تيمة المنفى في الشعر العربي الجاهلي (المقدمة الطللية).

2 – 2 – تيمة المنفى في الشعر الأندلسي (الحنين إلى الأوطان).

2 – 3 – تيمة المنفى في الشعر العربي الحديث .

3 – تيمة المنفى في النثر العربي .

3 – 1 – تيمة المنفى في الرواية العربية .

3 – 2 – تيمة المنفى في الرواية الفلسطينية .

3 – 3 – تيمة المنفى في بعض روايات غسان كنفاني .

1 – ضبط المفاهيم :

1 – 1 – مفهوم المنفى :

1 – 1 – 1 – لغة :

تتفق أغلب المعاجم العربية حول جذر كلمة " المنفى " و هو " نفى " . فجاء في معجم مقاييس اللغة : " نفى : النون و الفاء و الحرف المعتل أصيل يدلّ على تعرية شيء من شيء و إبعاده منه "[1] .

و جاء في لسان العرب : " نفي : نفي الشيء ينفي نفيا : تنحى ... و نفي الرجل عن الأرض و نفيته عنها : طردته فانتفى أي منتفيا . و نفوته : لغة في نفيته ، يقال نفيت الرجل و غيره أنفية نفيا إذ طردته ... و النفوة ، الخرجة من بلد إلى بلد "[2] .

يقول الفيروزآبادي عن هذا الجذر : " نفاه ينفيه ، و ينفوه عن أبي حيّان : نحاه ، فنفا هو و إنتفى : تنحى "[3] .

و ورد الجذر "نفى" في المعجم الوسيط كما يلي : " نفى الشيء : نفيا : نحاه و أبعده . يقال : نفى الحاكم فلانا : أخرجه من بلده و طرده "[4] .

---

[1] أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، تح عبد السلام محمد هارون ، ج 5 ، دار الفكر ، دمشق/سوريا ، د ط ، 1399هـ/1979م ، ص 456 .

[2] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، ج15 ، دار الطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1999 ، ص 336 / 337 .

[3] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، تح مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف محمد العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت/لبنان ، ط8 ، 1426هـ/2005م ، ص 1340 .

[4] مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة/مصر ، ط4 ، 1425هـ/2004م ، ص 943 .

فمفهوم كلمة " منفى" في هذه المعاجم العربية التي أوردناها تدل على الابتعاد و التنحي و الطرد .

1 – 1 – 2 اصطلاحا :

المنفى هو الابتعاد عن أرض الوطن و الانفصال عنه ،كما أنه " منزلة بين منزلتين ، زمكان مؤقت يقع بين زمكانين ، أحدهما ماض صيغت ملامحه في الوطن المبعد ، و الآخر وشيك الحدوث في المستقبل القريب ، هكذا يكون المنفى هو البرزخ ، أو هو ذلك الاستثناء بين الحياة و الموت ، إنه الحياة البينية لكثير من البشر و الفنانين و الكتّاب في مجتمعاتنا المعاصرة ، أما المنفِيّ فهو المنبت الذي لا جذور له و هو الأبتر الذي لا يرجى منه خير "[1] .

إن تحديد مفهوم المنفى شيء صعب ؛ فمن الصعب رسم معنى دقيق له ، و بتعبير بسيط المنفى هو الإقامة الاضطرارية و القسرية و الإجبارية في بلد آخر ، و هو أيضا ابتعاد قهري هو ابتعاد إجباري ، سببه القمع و الملاحقة من طرف الدولة ، و غياب الحريات بشكل عام في الوطن الأم . و هذا الخروج عن الوطن الأم يكون للحفاظ على الحياة الشخصية من خطر محدق بها نتيجة الأوضاع السياسية في الوطن .

النفي تجربة خطرة لأنها تلقي " ظلالها على الإنسان المنفِيّ ، من حيث هو كائن منبوذ دائما يحيا في زمان و مكان غريبين عنه ، و إلى جوار بشر آخرين يلفظونه و لا يألفهم "[2] . فيكون المرء محروما من الأهل و الأصدقاء في المنفى . فتتولد في الوطن الجديد مشاعر الغربة و الحنين . فالغربة يشعر بها لأنه لم يستطع الانخراط في المجتمع الجديد ، لأن الانخراط فيه يجبره على التخلي عن اللغة الأم و الثقافة الأصلية ، فهو في صراع و نزاع

[1] محمد الشحات ، سرديات المنفى ، الرواية العربية بعد عام 1967 ، دار أزمنة للنّشر و التوزيع ، عمّان/الأردن ، ط1 ، 2006 ، ص 23 .

[2] المرجع نفسه ، ص 9 .

دائم مع البيئة الجديدة . و هذا كله ينتج في نفسية المنفِيّ الشعور بالحنين ؛ الحنين للوطن و الأهل . فيتذكر كل تفاصيل وطنه الذي نفي منه ، فكل مشهد أو وضع في المكان الجديد يستحضر بالضرورة نظيره في الوطن .

1 – 2 مفهوم الغربة :

1 – 2 – 1 لغة :

ذكر ابن منظور في لسان العرب في مادة غرب : " اذهاب و التنحي عن الناس . و قد غرب عنا يغربُ غربا . و غرّب ، و أغرب ، و غرّبه : نحّاه .

و في الحديث أن النبي صلى الله عليه و سلم ، أمر بتغريب الزاني إذا لم يحصن ؛ و هو نفيه عن بلده"[1] .

كما ذُكِرت الغربة في القاموس المحيط في جذر غرب بمعنى : " الذهاب و التنحي . الغرْبة : النوى و البعد . و بالضم ، الغُرْبة : النزوح عن الوطن "[2] .

و جاءت كلمة الغربة في المعجم الوسيط على أنها " البعد و النوى و الابتعاد "[3] .

فالغربة في المعاجم العربية تدل على النوى و البعد و التنحي ، فالغريب هو البعيد عن وطنه . و نرى أن الغربة تشمل الابتعاد و التغريب و النفي عن البلد و الانفصال عن الأهل و الأحبة .

---

[1] ابن منظور ، لسان العرب ، ج 1 ، ص 638 .

[2] ينظر : الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ص 119 .

[3] مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ص 647 .

1 – 2 – 2 اصطلاحا :

الغربة تجربة مريرة و قاسية يشعر صاحبها بالألم و الوحشة و المرارة ، و كثيرا ما يشعر المغترب بالوحدة و العزلة و الفراغ النفسي ، و كذلك شعوره بافتقار الأمن و الطمأنينة و سوء العلاقات الاجتماعية ، " فالغربة هي النزوح عن الوطن ، أو البعد و النوى ، أو الانفصال عن الآخرين ، كذلك هو أن مثل هذا الانفصال لا يمكن أن يتم دون مشاعر نفسية ، كالخوف أو القلق أو الحنين "[1] .

و بهذا يمكن القول أن الغربة عن الوطن بمثابة اقتلاع المرء من جذوره ، كاقتلاع شجرة من جذورها و تحويلها إلى بيئة أخرى ،و التي ستطول جذورها في التغلغل في تلك التربة الجديدة .

فالغربة امتحان صعب و قاس ينتج عنه أبعاد مباشرة و غير مباشرة ، لما لها من انعكاسات و تأثيرات عميقة و سلبية على الروح و الجسد و الفكر . و حتى الشمس في الغربة تُحْرق الروح ، لكن في الوطن تشعرنا بدفئها . فالمغترب بعيد عن مكان ولادته و ملعب طفولته و ذكرياته و تفاصيل الحياة اليومية و الجغرافية ، الاجتماعية و العاطفية ...

1 – 3 مفهوم الحنين :

1 – 3 – 1 لغة :

الحنين لغة يعني : " الشديد من البكاء و الطرب ، و قيل هو صوت الطرب كان كذلك الحزن أو الفرح ، و الحنين هو الشوق و توقان النفس ، و المعنيان متقاربان . حنّ إليه حنينا فهو حان و الإستحنان هو الإستطراب

[1] محمود رجب ، الاغتراب سيرة مصطلح ، دار المعارف ، القاهرة /مصر ، ط3 ، 1988 ، ص 41 .

، و استحن استطرب ، و حنت الإبل نزعت إلى أوطانها أو أولادها ، و الناقة تحن في أثر ولدها حنينا تطرب مع الصوت "[1] .

كما جاءت كلمة الحنين في القاموس المحيط بمعنى : " الشوق و شدّة البكاء ، و الطرب ، أو صوت الطرب عن الحزن أو الفرح " [2] .

إن معنى الحنين في لسان العرب و القاموس المحيط يصُب في معنى واحد ، و يدل على الاشتياق ، الصوت ، الطرب ، العطف ، الرحمة ... ، و الحنين يحمل كل هذه الدلالات لتقاربها ؛ فشوق النفس إلى الشيء يكون غالبا مصحوبا بصوت و بكاء و عطف و رحمة . ضف إلى ذلك ربط العرب كلمة الحنين بالناقة ، فحنين الناقة يعني صوتها إذا اشتاقت ؛ و منه يتضح أن صوت الناقة يسمى حنينا .

1 – 3 – 2 اصطلاحا :

الحنين إلى الوطن عاطفة جياشة و طبيعية في النفس البشرية إذ لا يستطيع المرء التخلي عنها مهما بلغ رقيه الحضاري و تطوره المادي و سموه الروحي ، فالحنين إلى الأوطان يرتبط " بكرامة الإنسان و اعتزازه و كانت الغربة عن الوطن همّا شديدا ، و يُروى أنه قيل لأعرابي : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية و لزوم الأوطان و الجلوس مع الإخوان ، و قيل : فما الذُّل ؟ قال : التنقل في البلدان و التنحي عن الأوطان "[3] . فالبعد عن الوطن و العيش في الغربة يؤجج في النفس الشوق و العطف .

---

[1] ابن منظور ، لسان العرب ، ج 13 ، ص 129 .

[2] الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ص 1191 .

[3] يحي الجبوري ، الحنين و الغربة في الشعر العربي الحنين الى الأوطان ، دار مجدلاوي للنّشر و التوزيع ، عمّان/الأردن ، ط1 ، 1428هـ/2008م ، ص9 .

فالحنين " غريزة في النفوس ... فكيف لا يحن الإنسان إلى أرضه و وطنه مهما عاش في حرمان و بؤس و عانى من الظلم و الجوع و الفاقة ، و خير دليل على ذلك هؤلاء المهاجرين إلى بلاد الدنيا الجديدة ، و قد كسبوا المال و الجاه و الترف ، لكنهم يحنون أبدا إلى أوطانهم "[1] .

فالحنين يجعل الإنسان المغترب يستحضر الماضي بكل ذكرياته و تفاصيله ، و كأنه رحلة زمنية إلى الوراء ليستوقف فيها الماضي و يعيد معايشته ، كما أنه يكشف معاناة الإنسان في ديار الغربة ، و هذا دليل على الانتماء و الولاء و الحب للأهل و الديار و الوطن . فهو شعور داخلي ينتج عن ألم يعانيه الإنسان نتيجة فقده لأشياء عزيزة عليه.

و بالعودة إلى المفهوم اللغوي للحنين الذي أوردناه نجد أنه يدور حول البكاء ، الطرب ، الشوق ، الحزن ، الفرح ... و هذا دليل على أنه يجمع بين المتناقضتين اللذّة و الألم ؛ لذّة التذكّر و ألم الفراق .

فالعيش في المنفى و بلاد الغربة يجعل الشخص يُحِّس بحنين و شوق كبير لوطنه ، فلا يوجد مكان في هذه الحياة يعادل الوطن بالنسبة للإنسان . فمهما ابتعد عنه ، لابد للذكريات أن تبقى في ثنايا مخيلته . و الوطن هو المكان الذي تغادره أقدامها لكن قلوبها تظل فيه .

و من لا يشتاق إلى وطنه ؟ فلو لم يكن الوطن غاليا إلى هذه الدرجة لما سميّ بالأم . ناهيك أنه كُتبت عدّة مؤلفات لا تعدّ و لا تحصى في حب الوطن و الحنين إليه ، و ما انفكت الأقلام عنه تكتب إلى يومنا هذا ، لأن الوطن هو الحضن الدافئ الذي نلجأ له حين تقسوا علينا الحياة ، ففي الخير الذي يصيب أوطاننا لنا سعادة و طمأنينة ، و في أحزانها أو ما تمرّ به من محن لنا انكسار ، فحب الوطن لا تغيره المسافات البعيدة و لا الدهر ، فعلا أوطاننا هي الأمهات و نحن أبناؤها البارّون .

[1] المرجع السابق ، ص 5 .

2 – تيمة المنفى في الشعر العربي :

2 – 1 – تيمة المنفى في الشعر العربي الجاهلي (المقدمة الطللية) :

وُجِدت في الحياة العربية الجاهلية دواعٍ كثيرة للمنفى ، فقد تجلّت في الغربة عن الوطن و الأهل و المجتمع . إن ظاهرة الحنين و الشوق في المجتمع الجاهلي ليست وليدة رغبة الشاعر ، و ليست تقليدا فنّيا أيضا ، بل هي حاجة فرضها واقع شبه الجزيرة العربية بكل ما فيها من جفاف و قفار ؛ فكانت حياة بدوية قائمة على الترحال و الانتقال من مكان لآخر ، فيعتبر كل مكان جديد يرتادونه بمثابة غربة ، فيشعر فيها بالوحشة و الحنين .

تعد تجربة الأطلال عند الشعراء القدامى تجربة متفردة ، فحين " يغترب الجاهلي و يبتعد عن أهله و دياره يحنّ إليها و يتغنى بالشوق إليها ، و يبدأ قصائده بذكرها " [1] . كما أن البكاء على الطلل يرمز إلى تعلق الشاعر بالماضي ؛ فعندما تنتقل القبيلة من " أرضها إلى ارض أخرى يبقى الحنين إلى الأرض الأولى ، فحين يمرّ بها يقف عند أطلالها يبكيها و يبكي أهلها ، ... و إذا اغترب الجاهلي عن أرضه و أهله كثر حنينه إلى الديار و إن كانت خرائب و أطلال "[2] ، فيدفعه هذا الحنين إلى البحث عن بعض ملامح الذكريات ، فيجسدها في المقدمة الطللية ، فيبدأ بالبكاء على الأطلال و يصف المنازل التي رحل عنها و يصف أهله و خاصة المرأة الحبيبة . " إن ارتباط مفهوم الوطن بالقبيلة لدى الشاعر الجاهلي ، جعله يذوب بكل كيانه في هذا الوطن و يشعر أنه حين يكون بعيدا عن وطنه إنسان ضائع غريب ، مهضوم الحقوق لقد كان البعد عن الوطن لديه مأساة كبيرة أحسها ، و عانى منها عناء مرا . و لكن الإنسان مفارق وطنه لابد ، فالحياة تفرض عليه أحيانا أن يكون خارج وطنه و قبيلته .

---

[1] يحي الجبوري ، الحنين و الغربة في الشعر العربي ، ص 20 .

[2] المرجع نفسه ، ص 20 .

و هنا فلابد أن يعاني الغربة "[1] ، و قد عبّر الشاعر الجاهلي عن " رفضه للغربة و تشاؤمه بالفراق ، و صوّر ما سيلاقيه بعيدا عن أهله و موطنه ... ، و هذا الرفض المسبق يدل دلالة واضحة على الألم الذي يعانيه "[2] .

فالمقدمة الطللية تُعد المنفذ الذي يُعبِّر من خلاله عن موقفه من الأشياء ، فهي لا تخلو من الصور و الدلالات النفسية التي تنبئ عن الحالة النفسية الشعورية التي تعتري الشاعر في غربته . فالطلل إذا ترجمة صادقة لمشاعر الغُربة ، و هذه الغُربة لم تكن اختيارية بل فرضتها عوامل عدّة .

فهذا امرؤ القيس الذي يكاد يجمع نقاد الشعر العربي القديم على أنه أول من وقف و استوقف و بكى و استبكى ، هو من " أهل نجد من الطبقة الأولى . و هذه الديار التي وصفها في شعره كلّها ديار بني أسد "[3] .

وقد أورده ابن سلام الجمحي في كتابه في الطبقة الأولى ، " فاحتج لامرئ القيس من يقدمه و ليس أنه قال ما لم يقولوا و لكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب و اتبعته فيه الشعراء منه استيقافُ صحبه و البكاء على الديار "[4] .

يقول في مطلع قصيدته :

"قفا بنكِ من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل .

فتُوضِح فالمِقْراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جوب و شمال . "[5]

---

[1] عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي (دراسة) ، منشورات إتحاد الكُتاب العرب ، دمشق/سوريا ، د ط ، 1982 ، ص 45 .

[2] المرجع نفسه ، ص 51 .

[3] ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء ، تح أحمد محمد شاكر ، ج1 ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، د ط ، د ت ، ص 105 .

[4] محمد بن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، د ط ، 1422هـ/2001م ، ص 42 .

[5] الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، مكتبة الحياة ، بيروت/لبنان ، د ط ، د ت ، ص 30/29 .

يقف الشاعر على الطلل و يبكي على منازل الأحبة الخالية و يشعر بالحنين و الشوق إلى استعادة الأيام الماضية ، هو يقول : " أسعداني أعيناني على البكاء عند تذكر حبيبا فارقته و منزلا خرجت منه "[1] .

من خلال الطلل يشكو الشاعر محنته و كأنه يريد التخلص من بكائه على واقعة ، و خاصة بعد " إصرار أبيه عليه بالابتعاد عن حياة الترف و شرب الخمر و الاستماع للغناء و قول الشعر "[2] و أيضا ما " صنع في الشعر بفاطمة حيث كان عاشقا ، فطلبها زمانا فلم يصل إليها "[3] ، لكن كان امرؤ القيس محبا للّهو و اللعب ، مولعا بالنساء ، فكان في هذه المرحلة غير عابِئ ، و لم يكن هذا " من عادة أبناء الملوك فنهاه أبوه فلم ينته ، فأبعده عنه فخرج يطوف في أرض العرب مع جماعة من أمثاله سكرا و عربدة و شرود "[4] . حين أتاه خبر مصرع أبيه قام ثائرا ، وفي هذا الصدد قال : " ضيعني أبي صغيرا ، و حملني دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ، و لا سكر غدا ، اليوم خمر و غدا أمر ... " [5] ، و كان عند قوله هذا ، و توقف عن لهوه و شرابه ، و هبّ للأخذ بثأر أبيه .

إن امرأ القيس يحسن وصف العواطف الإنسانية كأحسن ما يكون الوصف ، و يصور الواقع الجاهلي ، و ينقل روح المعاناة و البعد و الغربة في ثنايا قصائده التي يحسن اختيار ألفاظها و ينحتها نحتا و فقا للموقف الذي هو فيه .

أما عنترة بن شداد فكان غريبا بين أهله ، "كان النظام القبلي عند العرب يقضي أن يولد الهجين على العبودية ، حتى يعترف به أبوه "[6] فعاش " زمنا طويلا عبدا معمورا كباقي العبيد و الاماء الذين كانوا لا يحسنون

---

[1] ينظر : المرجع السابق ، ص 30 .

[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص 24 .

[3] ينظر : ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء ، ص 107 .

[4] الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص 24 .

[5] المرجع نفسه ، ص 24 .

[6] عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص 101 .

من حياتهم إلا الخدمة و العمل "[1] . على الرغم من هذا التهميش و كل ضروب العذاب و الإهانة التي تلقّاها من قومه جراء سواده ،إلا أنه أثبت فحولته كفارس و ظل يحارب ضمن قبيلته .

و هكذا تأقلم عنترة مع " سواده بمرارة ، وفخرٍ ، و لكنه الفخر المبطن بتلك المرارة التي حملها كالوشم "[2] . و مما زاد إحساسه بالغربة عِشْقه لابنة عمه – عبلة – ، فهو " يشعر في قرارة نفسه أنه دون عبلة في المقام ، و أنها أرفع منه شأنا ، لما نشأ عليه من عبودية و نشأت عليه من سيادة "[3] .

نجد في شعر عنترة كغيره من الشعراء الجاهليين ظاهرة الوقوف على الأطلال ؛ لأن هذه الظاهرة أصدق تعبير عن عواطف الشاعر تجاه محبوبته و حنينه لها ؛ لما تقدم إلى عمه ليخطب عبلة ،رفض تزويج ابنته من عبد .

استهل عنترة معلقته بالوقوف على الديار و ذكر الأحبة و معزة الصحبة و ذكر محبوبته عبلة ، فيقول :"

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدّار بعد توهّم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي و عمي صباحا دار عبلة و اسلمي "[4]

تمثل الأطلال الأماكن التي عاش فيها الشعر لوعة العتاب و حُرّقة الذّكريات ، فهو يخاطب دار حبيبته و يطلب من هذه الدار أن تتكلم ، و تخبره عن أهلها ما فعلوا . فهذا مؤشر على نار الفراق المتأججة في صدر الشاعر ، فمخاطبة الجماد مكّنه من التنفيس عما يحمله في صدره من ذكريات العشق و أحزان البعد و الفراق .

و نلتمس هذه الحُرْقة في قوله : "

[1] المرجع السابق ، ص 101 .

[2] المرجع نفسه ، ص 101 .

[3] المرجع نفسه ، ص 103 .

[4] أمين سعيد ، شرح ديوان عنترة بن شداد ، دار المطبع العربية ، مصر ، د ط ، د ت ، ص 122 .

أحرقتني نار الجوى و البعاد بعد فقّدِ الأوطان و الأولاد

شاب رأسي فصار أبيض لونا بعد أن كان حالكا بالسواد

و تذكرت عبلة يوم جاءت لوداعِي و الهمّ و الوجد بادي

و هي تذرف من خفية البعد دمعا مستهلا بلوعة و سهاد "[1]

فبقايا الدار تشير إلى ذكريات و رائحة الأحباب ؛ رؤية منزل الحبيبة خاليا يهز وجدان الشاعر بالحنين و الشوق .

و هكذا تتضح ملامح الغربة عن المجتمع عند الشاعر عنترة بن شداد ، من خلال تجربته الطللية التي ترجمت التمييز العنصري و الإساءة و الظلم ، و نظرة المجتمع إلى سواده ، فهذه العصبية و العرقية كلاهما سادت في مجتمعه القبلي ، تعد مفتاح شخصيته .

و على الرغم من أن الشاعر ترعرع وسط قبيلته لكنه يفتقد مقومات العيش الكريم و الشعور بالأمان ؛ و هذه تعتبر غربة أيضا .

بالإضافة إلى تجربة امرئ القيس و عنترة نذكر تجربة طرفة بن العبد الطللية ، و الذي ترعرع إلى جانب والدته ، فعانى من " سوء معاملة أعمامه لهم . بعد وفاة أبيه "[2] ، ما خلف شعوره بالنقمة و إحساسه بالغربة في المحيط الذي يعيش فيه . ليتأرجح بين الانتماء لذلك المجتمع و عدم الانتماء ، " فلذّة طرفة إذا شعور بالتحدي مقترن بالسخرية من التقاليد و الأعراف و المعتقدات "[3] ، فهو " يرفض كل منطق تتمسك به القبيلة "[4] ؛

---

[1] المرجع السابق ، ص 57/56 .

[2] عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص 233 .

[3] المرجع نفسه ، ص 236 .

[4] المرجع نفسه ، ص 239 .

فالشاعر لا يقبل الالتزام بمنطق القبيلة لأنه يملك منطق خاص به ، " فالقبيلة تسمي ما يفعله طرفة استهتارا ، ويسميه طرفة حياة ، بل فهما جديدا للحياة مغايرا للفهم السائد "[1] .

يقول طرفة بن العبد في معلقته : "

لخولة أطلال بِبُرْقة تَهْمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي عليّ مطِيّهُم يقولون لا تهلك أسى و تجلد "[2]

يقف الشاعر يبكي على ديار خولة و يذكر رسوم الديار التي لها دلالة عميقة في نفسيته لدرجة إيقاظ ذكرياته ، التي تحتوي على السعادة ، مما يزيد اتساع بؤرة الغربة عنده ، والشوق و الحنين إلى تلك الأيام أكثر و أكثر .

و يقال عن طرفة أنه " ما أن يرى أطلال من يهوى حتى يثور شوقه ، و يهيج غرامه ، بل و يكاد الأسى يقضي عليه "[3] ، فتكاد شخصيته القوية أن " تذوب من شدة الحسرة و كثرة البكاء إذ ما لاحت لها أطلال الحبيبة "[4] .

إن الظلم الذي الذي تلقاه من أعمامه ولّد في قلبه جروحا و مرارة ، فالظلم " لو جاء من الغريب لكان أمرا طبيعيا . و لكن أن يأتي من القريب فهذا ما لا يمطن تصوره أو قبوله "[5] ، فهذا كله دليل على معاناة الشاعر في محيطه ، خاصة معاناته مع أقاربه . مما دفعه للابتعاد ؛ " فمن قرأ معلقته يلتمس فيها اثر البادية فيها و تشرد

---

[1] المرجع السابق ، ص 237 .

[2] الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص 91 .

[3] محمد الشيخ محمود صيام ، طرفة بن العبد حياته و شعره ، الماجستير في الأدب ، مكة المكرمة ، 1399هـ - 1400هـ / 1979م-1980م ، ص 284 .

[4] المرجع نفسه ، ص 284 .

[5] عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر الجاهلي ، ص 239 .

الشاعر زمنا في صحراواتها "[1] . لم يتأقلم مع القبيلة فعاش غريبا متفردا ، و غربته هذه غربة ذاتية أثّرت عليها مؤثّرات اجتماعية بشكل غير مباشر .

و هكذا تتسم التجربة الطللية الجاهلية بالخصوصية عند كل شاعر ، فهؤلاء الشعراء ذاقوا مرارة الغربة ، كل بطريقته و ظروفه ، لذا تُرجمت غربتهم و أحاسيسهم و حنينهم و شوقهم على شكل قصائد تحمل في ثناياها تجربة كل واحد منهم و تروي ملحمة غربته .

فالوقوف على الأطلال فن شعري صادق المشاعر ، فهو الواسطة للتعبير عن مشاعر معاناة و ألم الغربة ، و مما لا شك فيه أن الارتباط بالمكان يترك أثرا عميقا في نفس الإنسان ، و أن الشوق و الحنين من أشد مثيرات الوجدان ، فعندما نقرأ شعر الأطلال نشعر أن الشاعر لا يتحدث عن إحساسه و شعوره فقط ، بل عن أحاسيس كل البشر ، و هذا على الرغم من خصوصية التجربة الطللية الفريدة من نوعها إلاّ أنها تندرج في الإطار الإنساني .

2 – 2 – تيمة المنفى في الشعر الأندلسي (الحنين إلى الأندلس) :

كانت موقعة العقاب هزيمة ساحقة في عرش الموحدين و إنذارا لانهيار ممتلكاتهم في الأندلس ؛ حيث كانت " موقعة العقاب (سنة 609هـ) سببا رئيسا في انتشار عقد الأندلس ، فقد أضحى الطريق بعدها مفتوحا أمام النصارى لاجتراء تلك الأشلاء الممزقة . و سرعان ما أخذت المدن الأندلسية تتساقط ، تباعا في أيدي النصارى ، فسقطت اشبيلية و بلنسية و قرطبة و غيرها من المدن الأندلسية "[2] . فجراء هذه الحادثة وجد الأندلسيون أنفسهم مرغمين على الخروج من وطنهم و العيش في بلاد أخرى غير بلادهم ، فذاقوا " مرارة التشتت

[1] الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص 89 .

[2] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، الإسكندرية/مصر ، ط 1 ، 2007 م ، ص 178 .

و الضياع ، فألقى بعضهم عصا التسيار في المغرب و رحل بعضهم إلى المشرق و كانت تجربة الغربة عميقة في نفوسهم "[1] فتجدهم يعانون من هذه التجربة التي هزّت مشاعر الشوق و الحنين في نفسيتهم و خاصة الشعراء .

لقد تفنن شعراء الأندلس في غرض الحنين إلى الوطن عن غيرهم من الشعراء ، من حيث " الوفرة ، أو قوة العاطفة ، أو رنّة الأسى أو لهفة اللقاء نظرا لظروف الأندلس التي كانت في حال استنفار متواصل "[2] ، فصوروا وطنهم في أروع القصائد " فبكوا مدنهم بكاء حارا ، وتفجعوا على ضياعها ، و وصفوا ما أصابها على أيدي الأعداء من خراب و تدمير "[3] . و ما صدر ذلك إلاّ عن شعور وطني عميق تجسّد في عاطفة قوية ، فيبدو الشاعر الأندلسي " في صورة العاشق الذي فقد حبيبته إلى غير رجعة فظل طول عمره يندبها و يبكيها ، و نحس كما لو أن قطعة غالية قد انتزعت من جسده "[4] ، و تعد الأندلس عند أهلها " جنة الله في أرضه ، – و هم حيثما ذهبوا – لا تغادرهم صورة بلادهم ، و لا يملّون من ذكرها و التشوق إليها "[5] .

إن شعر الحنين إلى الوطن تطور و ازدهر عند شعراء الأندلس ، لأن " المحنة أذكت لوعة الشعراء و استثارت قرائحهم "[6] ، فهم تجرعوا مرارة الفراق و قاسوا من فرط الشوق و الحنين أشدّ مقاساة ، فعبّروا عن معاناتهم بعاطفة " صادقة و إحساس مرهف و نفوس معذبة تجرعت مرارة الغربة ، فكان حنينهم إلى الأندلس من أصدق ما قيل في هذا الباب و أبلغه على مرّ العصور "[7] .

---

[1] المرجع السابق ، ص 156 .

[2] محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، دار الفكر ، دمشق/سوريا ، ط 1 ، د ت ، ص 131 .

[3] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص 179 .

[4] المرجع نفسه ، ص 179 .

[5] محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، ص 132 .

[6] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص 179 .

[7] المرجع نفسه ، ص 156 .

فهذا ابن زيدون من أبرع و أقدر شعراء الأندلس في العصر الذي عاش فيه ، فنشأة " الشاعر في قرطبة ساعدته على الإنكباب على العلم و التحصيل فقد كانت هذه المدينة موئل العلوم و الآداب في الأندلس "[1] ، وقد وُصِف على أنه "كثير الميل لعلوم العرب و فنون اللغة فحفظ كثيرا من آثار الأدباء "[2] . كما أنه مائل إلى المجون ، هذا ما جعله يلبي دواعي قلبه ؛ فقد فُتِن قلبه بامرأة اسمها ولادة ، " وقد كانت حدائق قرطبة وبساتينها مرتعا لحبهما "[3] ، لكن ولادة لم تبق على عهدها ، فبدأت بالابتعاد عنه ، و صار كل اهتمامها لعاشق جديد و هو الوزير ابن عبدوس ، ومن هذا يتضح أنها هي سبب الفجوة بينها . فأصبح ابن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فهجرت ابن زيدون ، و " يشتد الأمر على ابن زيدون ، و يتألم أشد الألم ، و يتضرع لها و يتوسل و لكنها لا تلين ، فلا يجد بدّا من أن يتوعد ابن عبدوس نفسه و يتهدده "[4] . لكن ولاّدةلم تصغ إلى تلك القصائد التي كانت تحمل كل معاني التلطف و التوسل و الاعتذار ، و كذلك ابن يعبدوس لم يصغي إلى تهديدات ابن زيدون ، فيعظم الخلاف بينهما، و قيل أن ذلك الخلاف كان ضمن المكائد السياسية التي أدت إلى سجن ابن زيدون . في السجن أخذ ابن زيدون " يستعطف ابن جهور و يناشد العفو دون فائدة "[5] . و لما تأكد ابن زيدون بأن توسلاته و استعطافاته لن تجدي نفعا فقرر الفرار ، و " يقصد إشبيلية للمرة الأولى فيجد الشاعر فيها صدرا رحبا ... . و لكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة ، موطن صباه و مسرح هواه "[6] ، فيدب في قلبه الحنين و الشوق إلى قرطبة و نظّم عدة قصائد يحن فيها إلى وطنه . و يقول في موشحه " الوطن الحبيب " :

---

[1] جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، ط2 ، 1966 ، ص 164 .

[2] المرجع نفسه ، ص 164 .

[3] المرجع نفسه ، ص 170 .

[4] المرجع نفسه ، ص 172 .

[5] المرجع نفسه ، ص 176 .

[6] المرجع نفسه ، ص 178 .

" يا دمع ! صب ما شئت أن تصوبا

و يا فؤادي ! آن أن تذوبا

إذا الرّزايا أصبحت ضروبا

لم أر لي ، في أهلها ، ضريبا

قد ملأ الشوق الحشا ندوبا "[1]

بيّن في هذا الموشح مدى حنينه و شوقه إلى قرطبة و مرارة الفراق . كما نظّم قصيدة أخرى بعنوان " السلام إلى الغرب " وهي عبارة عن بيتين شعريين : "

غريب بأقصى الشرق ، يشكر الصبا : تحمُّلها منه السلام إلى الغرب

و ما ضرّ أنفاس الصبا في احتمالها سلام هوى ، يهديه جسم إلى قلب "[2]

و قال أيضا موشح بعنوان " قرطبة الغراء " و مطلعه :

" سقى الله أطلال الأحبة بالحمى

و حاك عليها ثوب وشي منمنما

و أطلع فيها للأزاهير أنجما

فكم رفلت فيها الخرائد كالدّمى

[1] ابن زيدون ، شعر ابن زيدون ، تح كرم البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت/لبنان ، د ط ، د ت ، ص 9 .
[2] المرجع نفسه ، ص 18 .

إذ العيش غض ، و الزّمان غلام "[1]

و صف لنا ابن زيدون في موشحه هذا قرطبة ، جمالها و روعتها ،كما شكا لنا فيها شوقه و حنينه ، و ذهاب النعيم الذي قد عاش فيه متذكرا ديار صباه و مسقط رأسه ، فأطلعنا على ما كانت عليه من بهاء و ازدهار .

من خلال هذا كله اتضحت مشاعر الحنين و أماني الرجوع إلى قرطبة . فالشوق كاد يخنقه و الحنين يكاد يقتله ، فالإنسان ألوف و لاشيء يضنيه أكثر من فراق الأرض التي ترعرع فيها و قضى صباه فيها .

و لأبن خفاجة أيضا قصائد عدّة تغنى فيها بالأندلس و طبيعتها ، حيث يعدّ من " أشهر شعراء الأندلس في موضوع وصف الطبيعة ،و لعل شعره يفيض بالمزايا التي تجعله في مقدمة شعراء العرب القدامى في هذا الغرض فقد أكثر من وصف الطبيعة الأندلسية "[2] . و أيضا نشأته في " في بلدة شقر ، و هي مدينة منعزلة في شرقي الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها " [3] ، دفعته إلى يقبل على " الطبيعة يتنزه في مغانيها و يتملى من مباهجها فتمتلئ نفسه بِشرا و يعبر عنها تعبيرا يفيض جبورا "[4] . لكن هذه الطبيعة الجملية لم تبقى على حالها ، فقد " بدأت الحياة في بلنسية تأخذ مجرى جديدا ، ... فبدأت تشهد حوادث دامية ، و معارك طاحنة ، ... عجل برحيل الكثير من أهالي المملكة "[5] ، و لاشك أن هذا التغيير أرغم الشاعر على الخروج من الوطن فاتجه إلى " عدوة المغرب فاشتد شوقه إلى وطنه "[6] . ففي بلاد الغربة غلب عليه الشوق و الحنين ؛ فراح يستعيد ذكرياته بلوعة ، باكيا أيامه الخوالي ، و وصف طبيعة وطنه . و لابد أنه انطلق من " قاعدة الحب العميق و الارتباط

---

[1] المرجع السابق ، ص 29 .
[2] محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، ص 121 .
[3] جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص 105 .
[4] المرجع نفسه ، ص 106 .
[5] بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، درجة الماجستير ، دمشق/سوريا ، 1403هـ/1983م ، ص 40 .
[6] جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص 106 .

الوثيق بطبيعة بلدته شقر و وطنه الأندلس ، فعبّر عن مشاعره و أحاسيسه بشعر مفعم بالعواطف ، زاخر بمشاهد الطبيعة في تجلياتها المختلفة ، مما يدل على إحساسه العميق بها "[1] .

و يقول ابن خفاجة في رثاء مدينة بلنسية : "

عاثت بساحتك العدى يا دار و محا محاسنك البلى و النار

و إذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك و استعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها و تمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنتِ أنتِ و لا الدِّيار ديارُ " [2]

و يقول أيضا في شوقه إلى الأندلس : "

إنّ للجنة بالأندلس مجتلى حسن و ريّا نفس

فسنا صحبتها من شنب و دجى ليلتها من لعس

فإذا ما هبت الريح صبا صحتُ و اشوقى إلى الأندلس "[3]

و المتصفح لديوان ابن خفاجة يجد الكثير من الصور الطبيعية ، و ذلك " ينم عن علاقة وثيقة ، وصلة بالطبيعة قوية ، تلك الطبيعة التي نشا في أحضانها و ترعرع فوق ربوعها ، و استودعها أحلى ذكريات عمره ، و أجمل ساعات أنسه "[4] . فالطبيعة الأندلسية شغفت قلب ابن خفاجة و هامت بها نفسه ، و ذلك لجمالها الساحر ، و بعده عنها حزّ في نفسه مشاعر الشوق و الحنين ، حيث أنه لم يستطع الابتعاد عنها بجوارحه على

[1] بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، ص 126 .

[2] ابن خفاجة ، ديوان ابن خفاجة ، تح مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية/مصر ، د ط ، 1960 . ص 154 .

[3] المرجع نفسه ، ص 136 .

[4] بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، ص 127 .

الرغم من ابتعاده الجسدي عنها ، فتفكيره دائما مشغول بالأندلس ، و قصائده في إطار الحنين الى وطنه تشهد على صدق عطائه الوجداني العميق .

و بالإضافة إلى ابن زيدون و ابن خفاجة ، نجد أبا البقاء الرندي الذي لقّب بشاعر رثاء الأندلس . " جاء أبو البقاء مع آخر أيام الموحدين في الأندلس ، و عاصر وقعة العقاب المشئومة "[1] و لابد أن " صدى المهانة التي لحقت بالمسلمين ظلّ يتردد بعدها لسنوات طويلة و أن فداحة أحداثها اختلطت مع الأيام بالأساطير و القصص ، و تسرب ذلك كله إلى أعماقه ، فكان إحساسه و يله بالمأساة أليما فادحا "[2] . فلا شك أن هذه الحادثة و ما ألت إليه الأندلس أثّر على نفسية الشاعر و شعره ، فكانت بذلك نقطة انطلاقه حيث ألّف نونيته ، فهي " قصيدة فريدة تستثير الأحزان بصدق عاطفتها ، و تجسد مأساة الأندلس تجسيدا حيا ... و كلها عناصر تؤكد قدرة الرندي و براعته في الرثاء "[3] . حيث يقول في مطلعها :

"لكل شيء إذا ما تم نقصان — فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول — من سره زمن ساءته أزمان

و هذه الدار لا تبقى على أحد — و لا يدوم على حال لها شأن "[4]

---

[1] الطاهر احمد مكي ، دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، ط3 ، 1987 ، ص 276 .

[2] المرجع نفسه ، ص 277 .

[3] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص 299 .

[4] محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، مكتبة سعد الدين ، بيروت/لبنان ، ط1 ، ط2 ، 1396هـ/1976م ، 1406هـ/1986م ، ص 143 .

لقد بدأ أبو البقاء الرندي مرثيته " بمقدمة تأملية قصيرة ، التفت فيها إلى أحداث تاريخية فإستلهم من ذوي الجاه و السلطان العبرة ، حيث دار عليهم الزمان و أدركهم قضاء الله ، فذهبوا و اندثروا ، فلم ينفعهم جاههم و سلطانهم ، فقضوا كأنهم ما كانوا "[1] .

و يقول – بعد تكملته من العبرة و الحكمة – : "

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية و أين شاطبة أم أين جيّان

و أين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان "[2]

لقد انتقل من المقدمة التأملية إلى " موضوعه الرئيسي . فيصف ما أصاب الأندلس من مصائب و أهوال ترددت أصداؤها في مشارق الأرض "[3] . و يقول فوزي عيسى عن هذه القصيدة – نونية أبو البقاء الرندي – أنها " تصور إحساس شاعر أندلسي مكلوم ، يقف وقفة حزينة أمام ذلك البناء الكبير المتهاوي يذرف الدموع ، و يستحضر العبرة و يهيمن على القصيدة إحساس حزين "[4] . و نظم قصيدة أخرى و هو في المغرب ، يذكر فيها بعده عن الأندلس بشكل عام و بعده عن مدينته – رندة – بشكل خاص ، قال فيها : "

بلغ لأندلس الزمان وصف لها ما بي من أشواق و بُعدِ مزار

و إذ مررت برندة ذات المنى و الرّاح و الزيتون و الأزهار

سلّم على تلك الديار و أهلها فالقوم قومي و الدّيار ديارِي "[5]

[1] ينظر : فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص 188 .

[2] محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص 146/145 .

[3] فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين .

[4] المرجع نفسه ، ص 190 .

[5] محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص 41 .

عبّر الشاعر من خلال هذه الأبيات الشعرية عن حنينه و شوقه سواء لوطنه أو أهله ، و عبّر أيضا عن رغبته الكبيرة في العودة إلى وطنه و لقاء أهله ، فجسّد لنا مدى قهره و ألمه في غربته .

ولقد تحدث الشعراء الثلاثة – ابن زيدون و ابن خفاجة و أبو البقاء الرندي – عن تجربتهم في الغربة ، كما عبروا عن ألم فراق الوطن و الأهل ، فنلاحظ أن الإحساس بالحنين طاغ على أشعارهم . فحين يرحل الأندلسي عن مدينته ، فإن مشاهد جمالها لا تفارق مخيلته . فقد احتلت الأندلس قلوب شعرائها فهي غالية عليهم ، فلم يستطيعوا التخلي عنها في أشعارهم ، فنكاد نجزم أنه لا يوجد شاعر أندلسي لم يذكر وطنه في شعره . فكل شاعر عبّر بطريقته الخاصة عن شوقه و حنينه للأندلس .

2 – 3 – تيمة المنفى في الشعر العربي الحديث :

يحتل الوطن مكانة كبيرة في الشعر العربي في مختلف عصوره ، فقد تغنى به الشعراء و حنّوا أليه عندما ابتعدوا عنه ، فقد ظل الوطن ملهما للشعراء ، و صار رمزا للشوق و الحنين ، فهذا جانب إيجابي يعبّر عن مدى ارتباط الفرد بوطنه و حبه له . و قد ضرب الشعراء فيه بسهم وافر ؛ لأنه يعبِّر عن عاطفة إنسانية . و العصر الحديث جسّد ظاهرة النفي خارج الوطن بصورة واضحة لا تحتاج إلى تبرير ، خاصة مع الأوضاع السياسية السائدة ، " ولعل هذا وجد تحت وطأة الدول الظالمة ، و من ذلك ما فعله الاستعمار في الوطن العربي ، حيث كان ينفي الطبقة المثقفة التي لها تأثير واضح على الشعب ، من هؤلاء الشعراء الذين هم لسان قومهم ، يعبرون بأشعارهم ما يحمس الشباب و يقوي عزيمتهم "[1] ، فهم أرادوا تغيير تلك الأوضاع السائدة في وطنهم ، لكن حرية التعبير عن أفكارهم و آرائهم غير موجودة ، لذا كان جزاء فعلتهم تلك النفي خارج أرض الوطن .

[1] نضال عليان عويض العماوي ، الغربة و الحنين في شعر أحمد شوقي دراسة وصفية تحليلية ، ماجستير ، غزة/فلسطين ، 1438هـ/2015م ، ص 33 .

فالشعراء الذين تمّ نفيهم راحوا ينظمون قصائد يعبرون من خلالها عن آلامهم في الغربة و إحساسهم بالشوق و الحنين المستمر لوطنهم و أهلهم ، لأن " غربة النفي عن الوطن قاسية ، فالوطن عندما يُسلب من الإنسان كأن الروح تؤخذ معه ، فتصبح الهموم و الأوجاع كثيرة "[1] . و من بين هؤلاء الشعراء الذين ذاقوا مرارة المنفى نذكر الشاعر محمود سامي البارودي و تلميذه أحمد شوقي .

" فعندما قامت الثورة العرابية و أحكمت سيطرتها على معظم مصر ، كان البارودي ممن ساعد في قيامها و أيدها و أُعتبر من أحد قادتها "[2] ، فقد كان ضد الفساد و الظلم في مصر ، فهو يريد الحرية و الاستقلال و رد الحقوق الضائعة و خاصة رد كرامة الوطن ، فأنشد يقول : "

فبادروا الأمر قبل الفوت و انتزعوا شكالة الرّيث فالدنيا مع العجل "[3]

لكن صراخه هذا للنهوض لاسترداد الحقوق لم ينجح ، فقد أخفقت الثورة ، فكان جزاء وطنيته و إخلاصه ، النفي إلى سرنديب ؛ و قال في هذا الصدد : "

لم أقترف زلة تقضي علي بما أصبحت فيه فماذا الويل و الحرب ؟

فهل دفاعي عن ديني و عن وطني ذنب أدان به ظُلما و أغترب ؟ "[4]

---

[1] المرجع نفسه ، ص 34 .

[2] المرجع نفسه ، ص 34 .

[3] محمود سامي البارودي ، ديوان البارودي ، تح علي الجازم / محمد شفيق معروف ، دار العودة ، بيروت/لبنان ، د ط ، 1998 ، ص 409 .

[4] المرجع السابق ، ص 74 .

و حين وصول لحظة الفراق ألق " نظرة الوداع على الوطن الحبيب ، وحيدا إلاّ من ألامه التي ينفطر منها فؤاده ، حسيرا على آمال مصر التي تحطمت معها آماله ، ملتاعا لفراق الأهل و الولد محزونا لبعده عن موطنه "[1] . فقال : "

و لما وقفنا للوداع و أسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصري أن يعود فعزّني و ناديت حلمي ان يثوب فلم يغن "[2]

فقد وصف لنا البارودي صعوبة لحظة الفراق و البعد عن الوطن و الأهل .و عند وصوله إلى سرنديب ، مضت أيامه في المنفى طويلة و بطيئة " و لم يمض يوم لم تذب فيه نفسه حسرة على غربته و مآله ، و حنينا إلى وطنه و أهله . و قد كان هذا النفي ذا أثر بالغ في شعر البارودي "[3] . فقد نظّم قصائد عدّة عبّر من خلالها عن حزنه و شوقه و حنينه إلى وطنه و أهله . و يقول في إحدى قصائده : "

أعائد بك يا ريحانة الزّمن فيلتقي الجفن بعد البين و الوسن

أشتاق رجعة أيامي لكاظمة و ما بي الدّار لولا الأهل و السكن

فهل ترد الليالي بعض ما سلبت ؟ أم هل تعود إلى أوطانها الظُّعُنُ ؟ "[4]

و قال في منفاه يتمنى أن يرى مصر :

"

[1] علي محمد الحديدي ، محمود سامي البارودي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة/مصر ، د ط ، 1967 ، ص 153 .
[2] ديوان البارودي ، ص 626 .
[3] عمر الدسوقي ، محمود سامي البارودي ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، د ط ، د ت ، 65 .
[4] ديوان البارودي ، ص 635 .

يا حبذا جرعة من ماء محنية و ضجعة فوق برد الرمل بالقاع

و نسمة كشميم الخلد قد حملت ريّا الأزهير من ميث و أجراع

يا هل أراني بذاك الحي مجتمعا بأهل ودي من قومي و أشياعي "[1]

و قال أيضا في معاناته في الغربة : "

أبيت حزينا في سرنديب ساهرا طوال الليالي و الخليُّون هُجّدُ

أحاول ما لا أستطيع طِلابهُ كذا النفس تهوى غير ما تملك اليد "[2]

فالبارودي عانى من مرارة الغربة و قهرها ، " و مرارة الوحدة في بلد عز فيه الصديق ، إن إحساسه العميق بالغربة سيطر على كيانه و وجدانه ، فعبر عن ذلك بكثير من الأشعار التي حملت بداخلها آلام الغربة و الحنين إلى الوطن " [3] . و هذه النماذج الشعرية تثبت صحة هذا القول ، ففيها يبث شكواه و يحن لوطنه و يصف حاله في الغربة ، لأن شعره في منفاه أصبح لسانا ناطقا عن حاله ، فمن " ظلمة النفي تفجر النور في حياة الفن و الشعر و القصيد ... ، و قدحت اللوعة زناد شاعريته فأورت لنا القصائد الخالدات "[4] . جسد البارودي تجربته القاسية في منفاه من خلال قصائده ، و تجدر الإشارة إلى أنه أول من أعاد بعث النهضة الشعرية بعد طول الخمود ، و كما نجد وضوح شخصيته في كل ما نظم .

كما تذوق أحمد شوقي مرارة الغربة ، فقد نفاه الانجليز إلى إسبانيا . لقد كان أحمد شوقي يعيش حياة الترف حيث نشأ " نشأة أرستقراطية ، ليس فيها شيء من الديمقراطية و ما يتصل بالديمقراطية من حياة الشعب المصري ... نشأ في برج ذهبي ، و ربما كانت الحسنة الوحيدة لهذا البرج أنه أتاح له أن يخلص للشعر و يفرغ له و

---

[1] ديوان البارودي ، ص 340 .

[2] ديوان البارودي ، ص 171 .

[3] نضال عليان عويض العماوي ، الغربة و الحنين في شعر أحمد شوقي ، ص 34 .

[4] علي محمد الحديدي ، محمود سامي البارودي ، ص 154 .

لا يشغل باله بشيء سواه "[1] ، فقد عاش في قصر الخديوي مع جدته التي كانت تعمل هناك . فطول فترة عيشه في قصر الخديوي لم يخرج شعره عن دائرة القصر ، فقد كان " يرفع المدائح في المناسبات الدينية و الوطنية إلى الخديوي ... ينظم في تأييد العرش ... الإشادة بآل إسماعيل "[2] ، و في هذه الفترة من " حياته كان يعيش بعيدا عن شعب فهو في برجه العاجي ، لا يفكر إلا فيما يفكر عباس فيه ... و كان في عباس طموح و اندفاع ، فصارع الإنجليز و غاضبهم ، و وقف شوقي في صفه يغضب عليهم مع غضبه "[3] . فساءت العلاقة بين عباس و الإنجليز ، فدفع شوقي ثمن ذلك ، فقد نفاه الانجليز إلى إسبانيا .

و كان المنفى سببا في تغيُّر حياته الشعرية ، فقد خرج شعره من القصر ، و أخذ منحى أخر . فقد " غيرت هذه الفترة من حياته كثيرا ، ففيها عرف الألم و الحسرة على فقدان وطنه ؛ فتجمعت مجموعة من الآلام في قلب الشاعر ، ألم ترك الوطن و فراقه و حنينه له ... ، هذه العوامل فجّرت ربة الشعر عنده ؛ فأخرجت لنا شعرا لا يضاهى ... ، فأصبح شاعر الوطنية الأول "[4] ، نظم عدّة قصائد عن الحنين إلى الوطن .

و يقول في أحد أبياته الشعرية : "

وسلا مصر : هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسّي ؟

كلما مرت الليالي عليه رق و العهد في الليالي تقسي "[5]

[1] شوقي ضيف ، شوقي شاعر العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة/مصر ، د ط ، 2010 ، ص 11 .

[2] نضال عليان عويض العماوي ، الغربة و الحنين في شعر أحمد شوقي ، ص 12 .

[3] شوقي ضيف ، شوقي شاعر العصر الحديث ، ص 17 .

[4] نضال عليان عويض العماوي ، الغربة و الحنين في شعر أحمد شوقي ، ص 18 .

[5] أحمد شوقي ، شوقيات ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة/مصر ، د ط ، د ت ، ص 429 .

و يقول في أبيات شعرية أخرى : "

وطني لو شغِلتٌ بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

و هفا بالفؤاد في سلسبيل ظمأ للسواد من عين الشمس

شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ، و لم يحل حسِّي "[1]

سرد أحمد شوقي من خلال قصائده عن ألمه و عذابه جراء بعد عن مصر ، و عبّر عن شوقه و حنينه إليه ،كما عبر عن حبه الشديد لوطنه .

و هكذا تجلى الحنين إلى الوطن عندهما – محمود سامي البارودي و أحمد شوقي – بعد نفيهما ، فكلاهما مِن أبرز من جسّد تيمة المنفى في الشعر العربي الحديث ، و ذلك من خلال قساوة تجربة المنفى التي مرّ بها طل واحد منهما ، كما تجسد في شعرهما رهافة الإحساس و الشعور بالنفس المعذّبة ، فشعرهما يحمل في طياته الأسى و الحزن فكانت قصائدهما في المنفى بمثابة مفتاح لباب الألم الذي كانوا فيه ، و تثير الشجى في نفس كل من يقرأها أو يسمعها ، ولم تفقد شيئا من تأثيرها حتى يومنا هذا .

3 – تيمة المنفى في النثر العربي :

3 – 1 – تيمة المنفى في الرواية العربية :

تعد الرواية إحدى أهم الأشكال الأدبية الفنية التي احتلت موقعا مميزا في الأدب العربي ، وصلت حدّ منافسة فن الشعر الذي كان في القمة . ففن الرواية كما هو معروف المرآة العاكسة للمجتمع ، فالروائي يركز كثيرا على الواقع الذي يعيشه فلابد من تجسيد بعض المقتطفات من الواقع . مع التغيرات التي حدثت في المجتمع العربي من ظروف سياسية اجتماعية اقتصادية ، و التي انعكست بدورها الأديب و منتوجه الأدبي ، فقد قابل الأديب

[1] شوقيات ، ص 430 .

هذه التغيرات و بالرفض ؛ رفض العيش في ظل الاحتلال أو الاستسلام لنظام الحكم ، فكانت نتيجة هذا الرفض النفي و الخروج عنوة من أرض الوطن .

و المنفى " هو أحد أكثر الأقدار مدعاة للكآبة ... ، لأنه لم يكن يعني فقط أعواما يعيشها الإنسان تائها بدون هدف ، بعيدا عن الأسرة و عن الأماكن المألوفة ، يعني أيضا أن يكون أشبه بمنبوذ دائم ، لا يشعر أبدا كأنه بين أهله و خلانه ، لا يتفق البتة مع محيطه ، لا يتعزّى عن الماضي ، لا يذيقه الحاضر و المستقبل إلا طعم المرارة "[1] ،كما أنه " حال تنتقل فيها الذات – قسرا و دون أية مساحة للاختيار – من وطن تتلاءم معه و تلتحم بجماعته إلى مجتمع بديل تفتقد فيه معنى الوطن"[2] ، فالمنفى " ينظر إلى العالم أجمع باعتباره أرضا غريبة . و يكثف المنفى من شعور المنفِي بأهميته الشخصية فتتضخم ذاته ،و يتحول منزل الأسرة المتواضع في ذاكرته إلى قصر منيف ، أو تتحول الحديقة المتواضعة على مستوى الواقع إلى ضيعة مترامية الأطراف على مستوى الذكرى و المخيلة " [3] . فالمنفِيّ يرى وطنه الذي خرج منه جنة ، و مهما بلغ بؤس وطنه فإنه يراه فردوسا مادام بعيدا عنه . حيث يعيش في " حالة سطحية ، لا ينسجم تماما مع المحيط الجديد و لا يتخلص كليا من عبء البيئة الماضية ، تضايقه أنصاف التداخلات و أنصاف الإنفصالات ؛ هو نوستلجي "[4] ، و يضيف إدوارد سعيد أن المنفى هو " تلك الحالة اللاتكيف أبدا على نحو تام ، و الشعور دائما أنك خارج العالم المألوف المهدار الذي يقطنه سكان أصليون ،إذا صح التعبير ، و الميل إلى أن تتجنب زين التأقلم و الرفاهية القومية أو حتى أن تكون كارها لها ... ، فأنت لا تستطيع العودة إلى وضع سابق ... ، و لا يمكنك أبدا ، و بالأسف ، أن تنجح تماما ، و تنسجم مع

[1] إدوارد سعيد ، صور المثقف – محاضرات ريث سنة 1993 – ، ترجمة غسّان غصن ، مراجعة منى أنيس ، الدار النهار ، بيروت/لبنان ، ط3 ، 1997 ، ص 57 .

[2] محمد الشحات ، سرديات المنفى ، ص 33 .

[3] المرجع نفسه ، ص 22 .

[4] إدوارد سعيد ، صور المثقف ، ص 59/58 .

مقرّك أو وضعك الجديد "[1] . إن المنفي في تناقض دائم ؛ تناقض بين العيش في مكان الوجود القسري و مكان الانتماء المرغوب التواجد فيه – الوطن – .

و قد انعكست هذه الظاهرة – المنفى – على الأدب و " فرضت نفسها على الرواية العربية الحديثة و المعاصرة ، حيث نلحظ أعمالا روائية كثيرة في الوطن العربي قد استلهمت هذه الظاهرة و تشرّبتها ، سواء على مستوى بنيتها أو على مستوي دلالاتها ، كلٌّ نصّ حسب رؤيته "[2] . فأصبح المنفى موضوعا طاغيا في روايات الكُتّاب المنفيين ، فنتج عن ذلك ما يعرف برواية المنفى ، و هي رواية "كتبها كاتب منفي بالفعل ، أو قد عانى فعل النفي في فترة من حياته ، و هي رواية تمثل تيمة النفي فيها تيمة مركزية تنهض عليها العملية السردية بأسرها "[3] ، فهي تعالج المنفى بشكل رئيسي ، و قد لقت رواجا و صدى كبيرا .

و تمثل تيمة المنفى في الرواية العربية قوة فاعلة ، تشكل الوعي الجمالي للأحداث التي ينقلها الكاتب المنفي . و "كتابة المنفى تنهض بالأساس على ذاكرة الراوي المنفي الذي نرى العالم من منظوره و ندرك تفصيلات هذا العالم بشخوصه و فضاءاته عبر حواسه الخاصة "[4] ، فالراوي المنفي هو المتحكم في تقديم القصة حسب منظوره الخاص من وصف الأماكن ، و سرد الأحداث . فهذه التجربة الروائية – المنفى – تعبر عن تجربة قاسية فتطرحها في طابع فني راق يحمل لغة إبداعية . فهناك "كُتّاب خبروا تجربة النفي ، أو تم إقصاؤهم عن أماكنهم ، أو تركوا أوطانهم و ديارهم لسبب أو لأخر ، لكن كتاباتهم تعالج هذه التجربة بطرق فنية تتفاوت ما بين طرح المنفى بطرق مباشرة ، أو الاكتفاء بمحض إشارات ضمنية إلى تجربة المنفى أو النفي في رواياتهم "[5] ، و بين هؤلاء

---

[1] المرجع نفسه ، ص 62 .

[2] عبد الله بن صفية ، إشكالية الاغتراب في رواية رجال في الشمس لغسان كنفاني سيرورة السرد و سؤال الكينونة ، مجلة آفاق للعلوم ، ع7 ، جلفة/الجزائر ، مارس 2017 ، ص 21 .

[3] محمد الشحات ، سرديات المنفى ، ص 33 .

[4] المرجع نفسه ، ص 26 .

[5] المرجع نفسه ، ص 11 .

الكتاب الذين خبروا تجربة المنفى نجد عبد الرحمن منيف ، فقد " خاض في العراق غمار النشاط السياسي خلال مرحلة مهمة من تاريخها ، ولكنه ما لبث أن أُبعِد عن وطنه مع عدد كبير من الطلاب العرب"[1] ، فأكمل حياته في المنفى . و قد تجسد تجربة المنفى في أعماله أيضا . فنجد روايته " شرق المتوسط " التي صدرت عام 1975 ، و التي تطرق فيها بكل جرأة و شجاعة لرسم حالة المعارض السياسي المثقف في معظم دول الشرق الأوسط ، فعبد الرحمن منيف لم يحدد بالضبط اسم البلد في روايته .

و كما قال محمد الشحات عن هذه الرواية : فيها " تعاني الذات الروائية (الراوي أو الشخصية) ضغوطا سياسية تدفعها إلى مغادرة الوطن ، و التيه في غيابات المنافي المختلفة "[2] ، حيث " لا يجد الراوي (رجب إسماعيل) سوى اللجوء إلى البلدان الأوروبية بعد أن ذاق ألوان التعذيب ، دخل سجون بلده (منفاه) التي تقع على الضفة الشرقية للموسط "[3] .

و تدور أحداث هذه الرواية حول الشاب " رجب إسماعيل " المعارض السياسي المثقف ، الذي كان يعيش حياته مثل باقي المواطنين في بلده ، لكن بما أنه مواطن مثقف فهو يقرأ كتبا ، ففي البداية كانت يظهر كتبه لأخته أنيسة ، لكن بمرور الأيام بدأ يخبئ كتب عنها ، فقد غيّر مواضيع الكتب التي يحضرها إلى البيت ، دخل إلى عالم جديد ، و الدليل على ذلك قول أخته " ظللت أتابع قراءاته دون أن أشارك فيها ، حتى جاء ذلك اليوم الذي بدأ يغلف الكتب أثناء قراءتها ، لكي لا أرى عناوينها "[4] . فأصبحت أيامهم في " تلك الفترة

---

[1] ينظر : موقع ويكيبيديا ،
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%85%D9%86_%D9%85%D9%86%D9%8A%D9%81

[2] سرديات المنفى ، ص 36 .

[3] المرجع نفسه ، ص 36 .

[4] عبد الرحمن منيف ، شرق المتوسط ، المكتبة العالمية ، بيروت/لبنان ، د ط ، د ت ، ص 125 .

مشحونة بالخطر و الانتظار ، رجب يغيب طويلا عن البيت أوقاتا طويلة "[1] . صارت حياة رجب ضمن النضال ضد النظام و التحرر من ذلك الاستبداد ، و واصل عمله النضالي السلمي و قال رجب كلاما عن نضاله " إني لم أحمل بندقية ، ولم أقتل أحدا "[2] ، حتى وقع تحت وطأة السلطة السياسية و حكمت عليه الدولة إحدى عشر سنة سجنا . و هو هنا يروي معاناته داخل السجن ، و يصف أنواع التعذيب التي تعرض لها من قبل السجّان السادي "كنت سجينا سياسيا ... إني محكوم إحدى عشرة سنة قضيت منها خمسا ، لا لسبب ، سوى أنني أردت بالفكرة ، أن أجعل حياة الناس أكثر سعادة ...

ضربوني بالسياط ... كانوا يطفئون السجائر في وجهي ... "[3] . و كان سبب سجنه أنهم وجدوا عند " تفتيش بيت الموقوف ، الأدوات الجُرمية المرفقة "[4] ، و ما وجدوا إلا مجموعة كتب ، و في هذا الصدد قال رجب و هو يخاطب المجتمع الغربي : " احذروا أكثر أن تفكروا بالأحزاب ، لأن أية كلمة تجد من يلتقطها و يجعلها مؤامرة و تخريبا ، و تدفعون ثمن كلمات ، حياتكم كلها في السجون الصحراوية "[5] . و تمر الأيام و رجب في السجن و حالته الصحية تزداد سوءا ، فتحتمت عليه الظروف أن يوقع على الورق التي عرضوها عليه ، و بذلك يضمن خروجه من السجن ، لكنها كانت بالنسبة لرجب " شهادة وفاة ، وفاة رجب إسماعيل ، كإنسان يحلم بأن يكتب "[6] . خرج من السجن لكن بدا غريبا عن وطنه ، و وحيدا خاصة و والدته متوفية و هو في السجن ، لكن أخته كانت تظن أنه " بمجرد خروجه من السجن ، ستبدأ حياتنا التي لطالما انتظرناها ، لكن يلوح لي الآن انه لاحق لنا حتى في أن نأمل ، أن ننتظر . سوف ننتهي كمخلوقات فاقدة كل شيء ، الحرية و المستقبل و الأمل

[1] شرق المتوسط ، ص 126 .
[2] شرق المتوسط ، ص 152 .
[3] شرق المتوسط ، ص 152 .
[4] شرق المتوسط ، ص 155 .
[5] شرق المتوسط ، ص 155 .
[6] شرق المتوسط ، ص 143 .

"[1] . قرر رجب السفر إلى فرنسا ، ليبدأ العلاج . و هناك في باريس لاحظ الفرق الكبير بين المجتمع العربي و بين المتجمع الأوروبي ، الشرق المظلم الذي يقتل حرية التعبير ، العرب المنير الذي يمجد الحرية . و أضحى رجب طوال بقائه في باريس ، يقارن بين المجتمعين ،حتى وافته المنيّة .

و قد جسدت هذه الرواية تجربة المنفى – السجن خاصة – ، فالبطل كما سبق الذكر عانى الويلات في السجن ، و هذا الموضوع – السجن – ذا حضور كبير في الوطن العربي بصفة عامة . فطرح منيف قضية انعدام حرية التعبير ، فعجز المثقفون في الإفصاح عن أفكارهم و آرائهم مما أدى إلى نقص إبداعاتهم ، فيستمر الحكم في غلق الأفواه بكل الطرق الاستبدادية ، إما بالسجن أو النفي أو القتل أيضا .

و هذه الرواية تقوم على ثنائيات متناقضة أبرزها : السجّان و السجين ، الشرق و الغرب ، فهذه الرواية جسدت ظلم السلطة في شرق المتوسط ، فمثلت شخصية رجب حالة المعارض السياسي المثقف ن الذي حاول نشر الوعي ، وفتح العيون على الظلم القائم في الوطن . الكاتب عبد الرحمن منيف تجرأ على تناول موضوع المعارضة السياسية في الوطن العربي خاصة في العصر الحديث . هكذا استعار عبد الرحمن منيف شخصية رجب ليقرب الصورة أكثر على ما يحدث في الوطن العربي ، و أيضا استعارها ليعرض أبعادا لطالما مست وعيه الذاتي .

فكما قال في بداية الرواية " يا ليته ميناء اللاعودة ، آخر قطعة من الوطن "[2] ، فهذا تعبير كل من طالب بكرامة الوطن و حقوق المواطنين ، فدفع ثمنه غاليا .

[1] شرق المتوسط ، ص 129 .
[2] شرق المتوسط ، ص 7 .

3 – 2 تيمة المنفى في الرواية الفلسطينية :

تعبر الرواية الفلسطينية عن القضايا الفلسطينيين نتيجة ، فالأدباء بعد النكبة " استطاعوا صياغة الواقع فنيّا ، إذ أصبح الهم الوطني يحتل مساحات الصفحات كلها التي تطمح إلى التعبير عن تجربة الاقتلاع و النفي "[1] ، فقد بدأت " الرواية الفلسطينية منذ الستينيات تنحو منحى واقعيا واضحا "[2] . كما أن " رواية المنفى في الأدب الفلسطيني تجاوزت حدود التعبير السردي في ترجمة الواقع "[3] ، لأن التجربة الفلسطينية في النفي

" فريدة في التاريخ الحديث الذي عرف أنواعا مختلفة من الاستعمار ، و نتيجة لهذا التفرد في الوضع الفلسطيني ، قام الخطاب الروائي الفلسطيني برمته على الإحساس المؤلم بالفضاء و نهض مفهوم الفضاء على أساس التناقض بين ما كان ، و ما هو كائن ، بين حلم الوطن و حقيقة المنفى "[4] . ولقد فرضت حضورها – الرواية الفلسطينية – " في عوالم الإبداع السردي باستيفائها شروط البناء و الجمال ... تنقل إلى القارئ كثيرا من تصورات المبدعين الفلسطينيين للوجود ، و توصيفاتهم المختلفة للمراحل التي عاشها الفلسطيني " [5] . فقد قام الكتاب الفلسطينيون بالتعبير عن الإحساس المؤلم و القهر و الاستبداد القائم في وطنهم بطريقة فريدة من نوعها فيجسدون واقعهم تجسيدا دقيقا كأنهم يقومون بتصوير فوتوغرافي ، فعندما تقوم بقراءة أعمالهم الروائية تشعر و كأنك هذه الأحداث تتجسد على أرض الواقع . فالروائيون الفلسطينيون عانوا هم أولا من مرارة المنفى على أرض الواقع قبل أن يمثلوها في نصوصهم ، فأصبحت " صورة المنفى ضرورة من ضرورات الأدب الفلسطيني ، كانت تحاول أن تلجم أحلام الفلسطينيين ، و تشدهم إلى الواقع ، و لعل قلق الاستقرار في المنفى ، يحمل أيضا في

---

[1] مصطفى عبد الغني ، المقاومة و المنفى في الرواية الفلسطينية ، دار الكرز ، القاهرة/مصر ، ط 1 ، 2012 ، 51 .

[2] المرجع نفسه ، ص 22 .

[3] المرجع نفسه ، ص 48 .

[4] المرجع نفسه ، ص 23 .

[5] عبد الله بن صفية ، إشكالية الإغتراب في رواية رجال من الشمس لغسان كنفاني ، ص 20 .

قراراته ، قلق الوجود في نفوس الفلسطينيين "[1] ، فالفلسطيني يجسد المعنى الحقيقي للمنفى سواء ، في نفيه خارج فلسطين أو داخلها ، فهو في كلتا الحالتين يعيش الحياة القسرية ، و أبسط مثال على ذلك " البيت الذي يشتريه الفلسطيني في منفاه ، على الرغم من اختياره إياه ، يعد مكانا اختياريا للإقامة ، و مكانا جبريا في آن ، لأن وجوده في المنفى هو محض إجراء قسري "[2] . فالرواية الواقعية الفلسطينية تجسد تيمة المنفى بامتياز ، لأن واقع الحياة الفلسطينية بعد نكبة 1948 يجسد المنفى ، و كما هو معروف فالرواية هي المرآة العاكسة للمجتمع . و الرواية الفلسطينية نقلت لنا الأحداث الفلسطينية و تنقل لنا تجربة المنفى في فلسطين لأنهم خاضوا و عاشوا مع هذه التجربة ، حيث يمكن اعتبار فلسطين الصدر الرحب للمنفى . وقد أخذ المنفى صورا متعددة في الأعمال الروائية الفلسطينية ، لأن الدافع وراء هذه الكتابة هو الوطن المفقود .

و من بين أبرز الروائيين الفلسطينيين الذين انعكست تجربتهم في المنفى على أعمالهم الروائية ، نذكر جبرا إبراهيم جبرا ، فهو روائي فلسطيني عاش مع أحداث فلسطين .

و قد مثلت روايته " البحث عن وليد مسعود " تيمة المنفى في الرواية الفلسطينية بصورة قوية ، . فهي رواية تعاني فيها " الذات الروائية (الراوي أو الشخصية) ضغوطا سياسيا تدفعها إلى مغادرة الوطن ، و التيه غي غيابات المنافي المختلفة "[3] ، كما أنها رواية" ترسم تفاصيل حياة المنفي الفلسطيني وليد مسعود ، و عذاباته في المنفى (العراق) ، ثم قراره بالعودة الفجائية إلى منفى الوطن بعد معرفته باستشهاد ابنه مروان دفاعا عن الوطن "[4] .

---

[1] مصطفى عبد الغني ، المقاومة و المنفى في الرواية الفلسطينية ، ص 35 .

[2] المرجع نفسه ، ص 26 .

[3] محمد الشحات ، سرديات المنفى ، 36 .

[4] المرجع نفسه ، ص 36 .

و يبدأ جبرا روايته بحدث اختفاء وليد مسعود ، و وليد مسعود هو الشخصية الرئيسية في الرواية ، حيث أنه يعيش مع معاناة ،كما انه لم يستطع التأقلم مع المجتمع الجديد العراق ، و نسيان وطنه الأصلي فلسطين ، فهو " يبحث دائما عن ذلك التوازن الذي يتحدث عنه طوال حياته و لم يجده قط "[1] . فهو لم يقدر على الموازنة بين الوطن المفقود و الوطن الموجود . و يصرّح صديقه جواد قائلا : " ففي السنوات الأخيرة كنت أرقبه ، و أخشي عليه : أرى خطوطا جديدة تتكاثر كل يوم حول عينيه ، حول فمه "[2] و يقول أيضا عن حالة وليد مسعود : " في الآونة الأخيرة كان عنفه في اشتداد ظاهر ... غير أنني لاحظت أنه أميل إلى الصمت إزاء كلام الآخرين " [3]، فصديقه عدم استقرار وليد مسعود نفسيا بسبب العلامات التي رآها جواد في وجهه ، و كانت هذه الضغوطات ضمن الأسباب التي قررا بسببها الاختفاء ، و لم يطن يعرف أحد إلى أين ذهب فقد ترك " سيارته على قارعة الطريق الصحراوي"[4] ، و حتى جواد لا يعرف أين ذهب " لم أسأله عن وجهته ، لو أنني خمنت أنه سيذهب على الأرجح إلى لبنان ، و من ثمّ ايطاليا . أكثر من مرة فعل ذلك في السابق ... أما هذه المرة فراح فعلا و لم يعد " [5] . و تأرجحت الآراء حول مكانه "قال البعض انه هاجر إلى كندا أو أستراليا ، قيل أنه قتل ، قيل إنه عاد إلى فلسطين "[6] .

و جبرا إبراهيم جبرا عانى و قاسى كل ما جسّده في روايته هذه ، فهو كباقي الفلسطينيين ، هاجروا من وطنهم و عاشوا في شتات . و يمكن اعتبار هذه الرواية اختزالا لسيرة جبرا إبراهيم جبرا ، فقد هُجِّر من وطنه و

---

[1] جبرا إبراهيم جبرا، البحث عن وليد مسعود ، مكتبة الشرق الأوسط ، بغداد/العراق ، ط3 ، 1935 ، ص 13 .

[2] البحث عن وليد مسعود ، ص 13 .

[3] البحث عن وليد مسعود ، ص 15 .

[4] البحث عن وليد مسعود ، ص 16 .

[5] البحث عن وليد مسعود ، ص 16 .

[6] البحث عن وليد مسعود ، ص 16 .

وقع في شتات كغيره . رغم استقراره في بغداد لكنه لم يحسبه وطنا دائما ، فجبرا يعلم في قرارة نفسه ، أنه ليس ثمة وطن ثابت للذين فقدوا وطنهم .

3 – 3 تيمة المنفى في بعض روايات غسان كنفاني :

يعد غسان كنفاني رائد الرواية الفلسطينية ، فكتاباته " تطابق زمنيا مراحل القضية الفلسطينية ، بل أنها تسبق هذه المراحل باستشرافها لها ، و رؤيتها الذاتية للأحداث "[1] ، كما أنه " من أكثر كتاب الرواية الفلسطينية وعيا في طرح الموقف الطبقي ، و ذلك بحكم انتمائه السياسي و التزامه بالعمل الثوري الفلسطيني الذي قاده إلى دراسة المجتمع الفلسطيني و موقف طبقاته من القضية الوطنية "[2] . فقد انعكست القضية الفلسطينية على كل أعماله الروائية ، فصور الأحداث الفلسطينية تصويرا دقيقا ، و لم يغفل حتى عن الأشياء البسيطة ، و بهذا يكون غسان كنفاني رائد رواية المنفى في الأدب الفلسطيني ، لأن رواياته اتسمت " بتناول القضية المصيرية بعمق و رؤية واعية متأنية و بتقنية فنية متطورة "[3] . و سبب اعتبار الرواية الفلسطينية هي موطن رواية المنفى ، راجع إلى أن " تجربة الاقتلاع و النفي القسري للفلسطيني عن أرضه ، نوعا من الخصوصية في علاقته مع الزمان و المكان . فمهما تعددت الأمكنة في المنافي ، فإن الحلم يظل يشد الفلسطيني إلى مكانه ، و مهما تراكم عليه الزمن ، فإنه يظل يشد أوتار الذاكرة نحو الزمن المفقود ، و هو يطمح في استعادتهما معا ، المكان المفقود و الزمن المفقود "[4] . فالرواية الفلسطينية بصفة عامة تحاول استعادة ذلك الزمن الذي ضاع ، لأنه تم قضاءه في المنفى بعيدا عن الوطن و استعادة ذلك المكان الذي فُقِد ، لأن الاحتلال الإسرائيلي أخذه بالقوة . و روايات غسان كنفاني جسدت

---

[1] مصطفى عبد الغني ، المقاومة و المنفى في الرواية الفلسطينية ، ص 35 .

[2] المرجع نفسه ، ص 35 .

[3] مريم جبر فريحات ، الحس الإغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني ، مجلة جامعة دمشق ، مجلد 26 ، ع 3 / 4 ، دمشق/سوريا ، 2010 ، ص 295 .

[4] فاروق وادي ، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية غسان كنفاني اميل حبيبي جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت/لبنان ، ط 1 ، 1981 ، ص 56 .

تيمة المنفى بشكل واضح ، فقدّم في رواياته " شخصيات من واقع المجتمع الفلسطيني بشكل خاص و المجتمع العربي بشكل عام ، بكل ما تحمله من سمات إنسانية إيجابية أو سلبية "[1] . و قد اخترنا ثلاث روايات من رواياته لنبين تيمة المنفى في أعماله الروائية . و هي روايات " نشرها غسان كنفاني قبل موته ، ترسم بكثافتها الشديدة رحلة الفلسطيني من الفرار إلى المواجهة ؛ رجال في الشمس ، ما تبقى لكم ، أم سعد "[2] .

فقد عرضت رواية رجال في الشمس " خطى رجال فلسطين في رحلة الفرار الجهنمية ، من صقيع المنفى إلى لظى الصحراء الممتدة بين البصرة و الكويت ، ينقلهم في الصحراء ، فلسطيني آخر ، عاجز ، فقد رجولته في حرب فلسطين ، مهربين في سيارة صهريج ماء فارغ ، نحو بديلهم المكاني الوهمي عن الأرض ، طمعا في تحقيق التوازن الاجتماعي و الاقتصادي و النفسي المفقود لكن البديل ، في النهاية ، لم يكن إلا الموت ، و الموت اختناقا في الصهريج ، و بسواعد أعجز من أن تدق جدران خزان الماء الذي يحتويهم هاربين ، يخنقهم هاربين ، لتجد جثثهم نهايتها و قبرها في ركام مزبلة صحراوية "[3] .

هذه الرواية تجسدت فيها تيمة المنفى بشكل كبير فالشخصيات الثلاث (أبو القيس ، أسعد ، مروان) ، كانت تجمعهم فكرة واحدة ، حلم الهجرة إلى الكويت . الانتقال من منفاهم إلى بلد آخر ، طلبا للمال و العيش الكريم ، فهم أرادوا تغيير وضعهم ، فقد عانوا كثيرا جراء هذا التهجير القسري.

فأبو القيس رجل عجوز عاش في فلسطين قبل الاحتلال الإسرائيلي ، و قد عشق أرض وطنه و خير دليل على ذلك أنه " كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيّل إليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من

[1] مريم جبر فريحات ، الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني ، ص 295 .
[2] ينظر : فاروق وادي ، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، ص 47/46 .
[3] المرجع نفسه ، ص 46 .

الحمام و قد اغتسلت بالماء البارد "[1] . و أسعد شاب سئم من الوضع المزري الذي يعيشه ، أما مروان طفل صغير : " الذين في سنك مازالوا في المدارس "[2] . عقدوا صفقة الموت مع أبو خيزران الذي سيهرّبهم إلى بيروت بسيارة ذا صهريج للماء . " اقتاد مروان زميله أسعد إلى موعده مع أبي الخيزران ، وصلا متأخرين قليلا فوجدوا أبا الخيزران بانتظارهما جالسا مع أبي القيس "[3] . لم يكونوا يعرفون أن البديل الذي كان ينتظرهم هو الموت .

انطلق غسان كنفاني في رواية رجال في الشمس " من الواقع اليومي المعاش . ركض الفلسطيني وراء الرغيف الهارب عبر الصحراء إلى الكويت ... ، أربع شخصيات رئيسية تمثل الأجيال الفلسطينية المختلفة ،و الهموم اليومية التي تشدها إلى بعضها ، هموم المخيم و التوق إلى سقف الباطون و إلى الحياة "[4] . و لفهم الشخصيات الثلاث (أبو القيس ، أسعد ، مروان) ، يجب أولا " فهم البؤس اليومي الذي يعيشه سكان المخيمات . إنها شخصيات واقعية تريد الخلاص بسرعة "[5] ، فهي تريد الخلاص من فقرها و بأسها ، و تغيير واقعها في أقل وقت ممكن ، فاختاروا الفرار و الهروب على المواجهة ، مواجهة الاحتلال الإسرائيلي لتغيير وضعهم .

و قصة الرواية الثانية ما تبقى لكم هي " رحلة فرار أخرى للفلسطيني ، عبر الصحراء ، تنتهي بإرهاصات المجابهة ففي الصحراء الفلسطينية المحتلة يهرب حامد خجلا من عاره ، بعد أن حملت أخته من رجل حقير خائن ثم تزوجها بلا ثمن ، إنه يقطع صحراء يستولي عليها الأعداء قاصدا للضفة الغربية بحثا عن أمه ، ملاذه الوهمي ، و التي كان غيابها سببا في كارثة عاره .

---

[1] غسان كنفاني ، رجال في الشمس ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء ، ط2 ، 1970 ، ص 11 .

[2] رجال في الشمس ، ص 43 .

[3] رجال من الشمس ، ص 48 .

[4] إحسان عباس و فضل النقيب و إلياس خوري ، غسان كنفاني إنسانا و أديبا و مناضلا ، منشورات الإتحاد ، تونس ، د ط ، د ت ، ص 105 .

[5] المرجع نفسه ، ص 108 .

لكن الصحراء التي كانت هناك في الرواية الأولى موتا و قبرا ، تصبح هنا أرضا للمجابهة ، فالبطل الهارب يلتقي عدوه فوق رمال الصحراء ، يصطدمان وجها لوجه ، خنجرا و بندقية و في لحظة متوحدة ، رغم البعد المكاني ، ينغرس الأخت في جسد زوجها ، و يلتمع نصل خنجر حامد في وجه عدوه "[1] .

و تتحدث هذه الرواية عن أسرة كانت تعيش في يافا ، لكن بسبب الاحتلال الإسرائيلي تركوها و قصدوا غزة ، لقد قاموا بتهجيرهم . و هنا تبدأ الأحداث أين تترك الأم ولديها (مريم و حامد) فتذهب إلى الأردن ، فيكبر الأولاد مع بعضهما دون أم ترعاهما ، فتتكرر عبارة " لو كانت أمك "[2] ، و بهذا تتحول حياة مريم خراب ، فقد ضيعت دراستها ، بعدها ضيعت شرفها ، فقد حملت من زكريا قبل الزواج ، و زوجها هذا لم لقد كانت يلقبه حامد " بالنتن "[3] ، لأنه رجل خائن و حقير فهو من دل جنود الصهاينة على مكان سالم ، " أنا أدلكم على سالم "[4] ، فقتلوه ، منذ تلك الحادثة و حامد يمقت زكريا و يناديه بالنتن . بعد أن تزوجت مريم بزكريا ، قرر حامد الذهاب ، " لقد قررت أن أترك غزة ... أين ستذهب ... سأذهب إلى الأردن ، عن طريق الصحراء "[5] ، لم يتحمل ذلك العار الذي لحقته به أخته ، فقرر أن يذهب للبحث عن أمه فهي ملاذه الوحيد بعد كل ذلك الاضطراب .

و قال إحسان عباس : " مع هذه الرواية يدخل البطل الفلسطيني مرحلة ولوج الموت ، إنه داخل الفعل التاريخي ، بدأت تتكشف له إمكانية صنع اللحظة ، تتكشف عبر ضباب كثيف و ضياع شديد . لكنها تظهر الأبطال مسكونين بالقضية ، علاقتهم بها علاقة حياة أو موت . هي التي صنعتهم على هذه الشاكلة ، و هي التي ستفتح لهم من جديد أبواب العبور . كنفاني لا يعظ ، يأتي صوته ممتزجا بصوت الصحراء . القضية تلد

[1] فاروق وادي ، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، ص 47 .
[2] غسان كنفاني ، ما تبقى لكم ، دار منشورات الرمال ، قبرص ، ط 1 / 2 ، 2013 / 2014 ، ص 11 / 12
[3] ما تبقى لكم ، ص 21 .
[4] ما تبقى لكم ، ص 26 .
[5] ما تبقى لكم ، ص 11 .

أبناءها – هكذا يتبدى لي – . حامد و مريم و زكريا يعبرون مجتمعين عن العديد من جوانب الشخصية الفلسطينية . شخصية أبناء المخيمات ، مريم تحرر نفسها بالسكين . و حامد يحرر نفسه بالهرب إلى أمه عبر الصحراء . لكن الصحراء تكشف له عن عدوه الحقيقي ، عن الإسرائيلي الذي عبْر قتله ستعود أمه و تولد من جديد ، الموت بشارة للجديد الذي يتمخض عنه الإنسان الفلسطيني"[1] . غسان وضع كل من الوطن و الأم في كلّفة واحدة ، فضياعهما يعني ضياع الأبناء .

و الرواية الأخيرة التي عنوانها " أم السعد " قال عنها ادهم الشرقاوي : " هي رواية اشتراكية بامتياز ، و أنها تدور في فلك الطبقة الفقيرة و المسحوقة ، التي تعاني ألم اللجوء ، و تعيش بؤس المخيمات ، إلا أننا نرى أن الحديث عن الطبقة عند غسّان في جملة (خيمة عن خيمة تفرق) "[2] ، و معنى هذه الجملة ؛ أن الاحتلال الصهيوني جعل الفلسطينيين سواسية ، فكلهم يعيشون حياة بائسة ، بغنيّهم و فقيرهم .

تدور أحداث هذه الرواية عن أم سعد التي كانت مثال المرأة الثورية المكافحة ، التي آمن أن ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة فقد أولادها من أجل القضية الوطنية ، فقد كانت مع فكرة ذهاب ابنها سعد للنضال ، و الدليل على ذلك الحوار الذي دار بينها و بين غسان " يا ابن عمي ، أريد أن أقول لك شيئا لقد ذهب سعد . إلى أين ، ... لقد ألتحق بالفدائيين ... ، و لست حزينة أو غاضبة ... ، لا "[3] ، تعرف أن الفدائيون هم من سيردون كرامة الوطن و يردون حقوق الفلسطينيين ، إنها تريد تغيير وضعها فقد تعبت من المخيمات تريد الاستقرار تقول مرة : " في الليل أحسست بأنني قريبة من النهاية مانفع ؟ أريد أن أعيش حتى أراها . لا أريد أن

[1] غسان كنفاني إنسانا و أديبا و مناضلا ، ص 113/112 .

[2] أدهم شرقاوي قس بن ساعدة ، الأم في أدب غسان كنفاني أم سعد أنموذجا ، تدقيق ماجد مقبل ، دار كلمات للنشر و التوزيع ، الكويت ، ط1 ، 2014 ، ص 26 .

[3] غسان كنفاني ، أم سعد ، منشورات الرمال ، قبرص ، د ط ، 2013 ، ص من 22 إلى 24 .

أموت هنا ، في الوحل و وسخ المطابخ "[1] . فهي امرأة " قوية كما لا يستطيع الصخر ، صبورة كما لا يطيق للصبر ... ، تعيش عمرها عشر مرات في التعب و العمل كي تنتزع لقمتها النظيفة ، و لقم أولادها "[2] ، عاش حياة نظيفة لم يدخل مال الحرام إلى بيتها قط رغم فقرها ، و هي قريبة لغسان " أم سعد ، المرأة التي عاشت مع أهلي في الغابسية سنوات لا يحصيها العد "[3] ، و يقول غسان عنها " أعرفها منذ سنوات ، تشكل في مسيرة أيامي شيئا لا غنى عنه "[4] .

عبّر غسّان كنفاني في خلال هذه الرواية عن الأجواء التي تسود داخل المخيمات ، و عن الأم الفلسطينية التي تقدم أولادها فداء للوطن ، و التي ترى أن حمل السلاح هو واجب كل فلسطيني ، فالأم ترى أن استرداد كرامة الوطن من الواجبات الأولى على المواطن الفلسطيني ، فعلى كل فلسطيني أن يحمل على عاتقه قضية وطنه و أن يجعل هذه القضية بين عينه و لا يغفل عنها لا ينساها ، لأنه ما أخذ بالقوة لا يرد إلا بالقوة .

[1] أم سعد ، ص 29 .
[2] أم سعد ، ص 21 .
[3] أم سعد ، ص 21 .
[4] أم سعد ، ص 21 .

الفصل الثاني

الفصل الثاني :

زمكان المنفى في رواية 'عائد إلى حيفا' :

1 – غسان كنفاني، حياته و أعماله .

1 – 1 – حياة غسان كنفاني الشخصية .

1 – 2 – حياة غسان كنفاني العملِية .

1 – 3 – إبداعات غسان كنفاني الأدبية .

2 – الزمن في الرواية .

2 – 1 – مفهوم الزمن .

2 – 2 – آليات الزمن .

2 – 3 – الزمن في رواية عائد إلى حيفا .

3 – المكان في الرواية .

3 – 1 – مفهوم المكان .

3 – 2 – المكان في رواية عائد إلى حيفا .

4 – زمكان المنفي في رواية عائد إلى حيفا .

1 – غسان كنفاني ، حياته و أعماله :

1 – 1 – حياة غسان كنفاني الشخصية :

ولد غسان كنفاني " سنة 1936 في عكا "[1] ، و حسب قول أخيه أنه " الطفل الوحيد بين أشقائه الذي ولد في عكا "[2] ، عاش غسان في " حي المنشية بيافا و هو الحي الملاصق لتل أبيب . و قد شاهد أولى حوادث الإحتكاك بين العرب و اليهود التي بدأت هناك إثر قرار تقسيم فلسطين "[3] . لذلك قرر الأب أخذ عائلته إلى عكا ، و من خلال هذا نلاحظ أن مولد غسان قد ترافق مع " اللهب الثوري الذي عم فلسطين ذلك العام احتجاجا على الهجرة الصهيونية ، و رفضا لسياسة الانتداب البريطاني . و قد امتد هذا اللهب ليشكل أحد أهم الثورات في تاريخ فلسكين الحديث "[4] . لكن الاستقرار في عكا لم يدم طويلا ، ففي " أحد ليالي أواخر نيسان 1948 حدث أول هجوم على مدينة عكا ... ، و مع استمرار تلك الاشتباكات اضطر معظم سكان المدينة النزوح عنها ... ، و قد كانت أسرة غسان ممن تيسر لهم المغادرة مع العديد من الأسر في سيارة شحن إلى لبنان "[5] . اضطروا للبقاء مدة زمنية مع قومهم في " منطقة الغازية ، بالقرب من مدينة صيدا "[6] . و ها قد بدأت حياة كنفاني تدخل إلى " واقع المخيم و التشرد ، و يلقي بظلاله على الحياة اليومية . و ابتدأ الركض وراء اللقمة و الكرامة "[7] .

و انتقلت العائلة إلى " دمشق للاستقرار هناك ، و لاضطراب ظروفهم ، شرع والده يعمل في أعمال بدائية بسيطة بعد ما كان يعمل محاميا في بلده ، و عملت أخته في التدريس ، أما هو و أخوه فقد اشتغلا

---

[1] خليل أحمد خليل ، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين ، ج 2 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، دار فارس ، بيروت/لبنان ، عمّان/الأردن ، ط1 ، د ت ، ص 995 .

[2] أوس داود يعقوب ، الشهيد غسان كنفاني ... ظل الغياب ، موقع ديوان العرب ، الخميس 21 تموز (يوليو) 2011 .

[3] المرجع نفسه .

[4] إحسان عباس ، غسان كنفاني ، ص 7 .

[5] ينظر : أوس داود يعقوب ، الشهيد غسان كنفاني .

[6] خليل أحمد خليل ، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين ، ص 995 .

[7] إحساس عباس ، غسان كنفاني ، ص 8 .

كمراهقين ، في أعمال بسيطة لإعانة عائلتهم "[1] . و على رغم كل هذه الظروف ، إلا أن غسان استطاع متابعة تحصيله العلمي .

و بعد تحسن الحالة الاجتماعية للعائلة ، عاد والده لمزاوله مهنة المحاماة و أخته سافرت للكويت للتدريس هناك . أما غسان كنفاني قد " شرع في تكملة الدراسة في الجامعة ، جامعة دمشق قسم الأدب العربي ، لمدة ثلاث سنوات ، ثم فصل بعدها لأسباب سياسية . عندها سافر إلى الكويت حيث مكث فيها ست سنوات . و فيها أقبل على القراءة و التأليف "[2] ، و فترة إقامته في الكويت كانت مرحلة مهمة في تكوين شخصيته من خلال تطور الأفكار عنده ، و في نفس الفترة بدأت تظهر عليه علامات إصابته بالسكري . و من الكويت اتجه إلى بيروت . في بيروت تعرف على الآنسة " آني " ، التي " تم إرشادها إلى غسان كنفاني كمرجع للقضية الفلسطينية ، بعد أن بدأت تهتم بهذه القضية ، و رغبت في الإطلاع عن كثب على مأساة الشعب الفلسطيني و ما يعانيه جراء احتلال أرضه و تشريده في أصقاع الأرض "[3] . تأثرت آني بغسان بشكل كبير ، لأنه يملك حماسا كبير اتجاه القضية الفلسطينية . و لم تمض مدة طويلة اذ بغسان يعرض عليها الزواج ، و " قام بتعريفها على عائلته ، كما قامت هي بالكتابة إلى أهلها . و رُزقا بفايز في 24 أكتوبر 1962 و ليلى في 12 نوفمبر 1966 "[4] .

انتظمت حياة غسان كنفاني مع عائلته الصغيرة ، رغم كثرة عمله و انهماكه الكبير فيه ، إلا أن " حق بيته و أولاده عليه كان مقدسا . كانت ساعات وجوده بين زوجته و أولاده من أسعد لحظات عمره "[5] . على الرغم من أن غسان يعيش حياة زوجية مستقرة مع زوجته و أولاده ، إلا أنه وقع أسير قلبه ، فقد أحب غادة السمان التي التقى بها في الندوات الفكرية ، و تطورت العلاقة بينهما فأحبها و عشقها ، فأصبح يرسل لها رسائل حب و عتاب و اشتياق ... ، و استمر على ذلك النحو على تم اغتياله .

---

[1] ينظر : أوس داود يعقوب ، الشهيد غسان كنفاني .

[2] ينظر : إحسان عباس ، غسان كنفاني ، ص 132 .

[3] ينظر : أوس داود يعقوب ، الشهيد غسان كنفاني .

[4] المرجع نفسه .

[5] المرجع نفسه .

و قد تم اغتياله من قِبل " المخابرات الإسرائيلية في 8 تموز 1972 "[1] ، حيث أنهم قاموا بتفخيخ سيارته ، و انفجرت و هو داخلها مع لميس – ابنة أخته ، التي كانت شغوفة به و محبة له – ، و بذلك إستشهد غسان كنفاني و هو في بيروت .

لقد عاش غسان حياته عبر ثلاث أشواط ، " قضى 12 عاما في موطن رأسه ، و 12 عاما في تحصيل علمه ما بين دمشق و الكويت ، و 12 عاما في بيروت فارسا للتحرير بالكلمة "[2] .

و في أحد المرات " سأله صديق و قد رأى بيده قطعة سلاح للمرة الأولى : يا غسان رأيتك ، رأيتك تحمل الريشة ، ثم القلم ، و الآن السلاح ، ماذا ستحمل في المستقبل ؟ و يجيب : أي شيء أستطيع به الدفاع عن النفس ، الريشة ، القلم ، السلاح ، أدوات أدافع بها عن نفسي "[3] .

فموته و اغتياله لم تكن مفاجأة له و لأهله فكل يعرف أنه يوما ما سيموت بأبشع الطرق . و " يروي أصدقائه أنه كان يسرق اللحظات ليكتب ، كان يعلم أنه لن يعيش طويلا . لذلك جعل من أعوامه القصيرة تاريخا مليئا بالعمل المبدع . فلم يتوقف القلم ، عند نهاية رواياته الأخيرة "[4] .

1 – 2 – حياة غسان كنفاني العملِية :

غسان أو " فارس فارس ، والد فايز ... ، و كل الأسماء الأخرى التي حملها لخصوص أدبه و مقاومته "[5] ، هو " صحافي فلسطيني عربي ، فنّان ، أديب ، مثقّف عضوي ، ناقد ملتزم ، مقاوم "[6] ، و أيضا " باحث ،

[1] إحسان عباس ، غسان كنفاني ، ص 9 .
[2] خليل أحمد خليل ، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين ، ص 995 .
[3] إحسان عباس ، غسان كنفاني ، ص 71 .
[4] إحسان عباس ، غسان كنفاني ، ص 10 .
[5] ينظر: خليل أحمد خليل ، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين ، ص 995 .
[6] المرجع نفسه ، ص 995 .

مسرحي ، قاص روائي ، و شاعر غير معلن "[1] . و إلى جانب كل هذا التنوع الهائل من مختلف مجالاته الإبداعية ، كان " يكتب أيضا الأدب الساخر الضاحك "[2] .

ففي الكويت – أقبل على القراءة و التأليف – بدأ " يحرر في إحدى صحف الكويت و يكتب سياسيا بتوقيع أبو العز ... "[3] .

و في بيروت برزت روحه الصحافية ، شرع بالعمل في " جريدة الحرية التي تصدر في بيروت ، ثم أصبح عام 1963 رئيسا لتحرير جريدة المحرر ، و انتقل منها عام 1967 ليصبح رئيسا لتحرير ملحق جريدة الأنوار الأسبوعي . و في عام 1969 أصبح كنفاني رئيسا لتحرير جريدة الهدف الأسبوعية الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، و بقي في عمله هذا كرئيس تحرير و كعضو في المكتب السياسي للجبهة و ناطق رسمي باسمها "[4] حتى يوم اغتياله .

قد تنوعت مناصبه في الصحافة ، كما تنوع أيضا في الجرائد و المجلات التي عمل فيها ، " أبرزها الحرية الناطقة بلسان حركة القوميين العرب ، الأنوار ن و لحق الأنوار ، فالرأي و المحرر ، وصولا إلى فلسطين الهدف ، يوم صار ناطقا رسميا بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين "[5] .

كما تنوعت إبداعات غسان من " المقالة السياسية و التعليق الثقافي ، و النقد الأدبي في سياق عمله الصحفي اليومي المتعب إلى القصة المتدرجة بين الشكل الواقعي و الشكل الرمزي للواقعية ... ، إلى الرواية و تحولات أشكالها البنائية الحديثة بين رواية و أخرى ... إلى اللوحات الفنية و تصاميم الملصقات "[6] . فالمتأمل في كتاباته يجده في " المقالات السياسية يكون متفائلا و يتحدث عن موقف محدد و ملتزم و في المقالات الأدبية يكون متأملا متحديا ضاحكا . و لكن كل ذلك يختفي في القصة ، فالقصة دوما تصور عالما آخر ز إذا قرانا له مقالا سياسيا ، و آخر أدبيا و قصة قصيرة ... فإننا ندهش و نشعر كأن الكاتب يعيش في عالمين . عالم السياسة

---

[1] م ن ، ص 996 .

[2] محمد دكروب ، غسان (فارس فارس) كنفاني في كتابته الساخرة ... الجادّة ، دار الآداب ، بيروت/لبنان ، ط1 ، 1996 ، ص 7 .

[3] ينظر : أوس داود يعقوب ، الشهيد غسان كنفاني .

[4] إحسان عباس ، غسان كنفاني ، ص 9 .

[5] خليل أحمد خليل ، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين ، ص 995 .

[6] محمد دكروب ، غسان كنفاني في كتابته الساخرة ، ص 7 .

و الأدب ، و عالم فلسطين . في العالم الأول يعيش غسان متفائلا باسما ليكشف أن ذلك ليس حقه فيعيش في العالم الثاني حزينا متحفزا "[1] .

و فيما يخص الأدب الساخر ، فإنه كان " يأنس إلى هذه الواحة ، مرّة في الأسبوع ، تحت اسم / قناع هو فارس فارس "[2] ، حيث انه تحت هذا الاسم المستعار كان " ينطلق على هواه يتحرر إلى حدّ كبير من صفة كونه غسان كنفاني المناضل الفلسطيني الحزبي الملتزم المسؤول ... ، ينتقد و ينكر و يسخر و يتمسخر و يفضح و يكشف الزيف – في الفن و في المواقف – بما لم يكن يتيح لنفسه أن يكتبه تحت خيمة اسمه المعروف "[3] . غسان في هذا المجال يترك العنان لنفسه ، فيكون أكثر انفتاحا و انفلاتا و حرية منه في مجالاته الإبداعية الأخرى .

أما إبداعه الروائي فقد كانت الرواية " لديه أكثر من مجرد المجابهة ، فمن خلالها عبّر عن الواقع ، و تسرب منه إلى الماضي ليوقظه و يحييه ، ثم جابه الحاضر "[4] ، فكنفاني في رواياته اتكأ على " الواقع الفلسطيني و الرمز معا ، ناسجا حلة الفلسطيني من المنفى إلى الثورة "[5] . و قد " ساهمت أعماله الروائية في تطور الرواية الفلسطينية "[6] ، كما أن غسان و أعماله الروائية نالا مكانة مهمة أكثر من الكتاب الفلسطينيين و العرب الآخرين . فرواياته حافظت على طزاجتها رغم مرور الوقت ، لأن معانيها تتجدد كل مرة في كل حقبة ، و بذلك حظيت باهتمام متجدد .

و كل إبداعات غسان تتمحور حول " قصية الإنسان الفلسطيني المسلوب الأرض و الكرامة "[7] ، فقد كرّس قلمه و كلمته للقضية الفلسطينية . فجعل همّه الأول و الوحيد هو القضية الفلسطينية ، فحارب – في كل حياته اليومية – من اجل قضية شعبه الفلسطيني . فحمل القلم قبل السلاح من أجل قضيته .

أما نضاله السياسي فقد" اتجه نحوه في مرحلة مبكرة ، لأنه كان يعيش في المخيم . فكان على اتصال مباشر مع الفلسطينيين و مشاكلهم من خلال ذلك الجو المحزن و العاطفي الذي عاشه كطفل . و لم يصعب عليه

---

[1] إحسان عباس ، غسان كنفاني ن ص 60 .

[2] محمد دكروب ، غسان كنفاني في كتابته الساخرة . ص 7 .

[3] المرجع السابق ، ص 8 .

[4] فاروق وادي ، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، ص 45 .

[5] المرجع نفسه ، ص 52 .

[6] ينظر: المرجع نفسه ، ص 52 .

[7] إحسان عباس ، غسان كنفاني ، ص 9 .

اكتشاف الجذور السياسية للجو الذي عاشه "[1] . و من خلال هذا يظهر أن روح النضال من أجل الوطن عند غسان كنفاني قد بدأت في سن مبكرة ، فطمح إلى مجابهة الواقع .

1 – 3 – إبداعات غسان كنفاني الأدبية :

لاشك أن شخصا مثله تنوعت مجالاته الإبداعية ، قد أضاف إلى الثقافة العربية بشكل عام و إلى الثقافة الفلسطينية بشكل خاص أشياء ذات قيمة ، رغم موته المبكر ، و كما قلنا فيما سبق فإنه كان يتسابق مع الموت في الكتابة . فقد " جعل من أعوامه القصيرة تاريخا مليئا بالعمل المبدع "[2] . كان يملك شخصية فذّة ، ذات موهبة فياضة و متعددة الأوجه ، و بالتالي تنوعت إنتاجاته و إبداعاته .

فقد أخرج لنا روايات مميزة أكثر من رائعة ، و هي التالي :

رجال في الشمس : بيروت ، 1963 . و صدر ضمن مشروع 'كتاب الشهر ' ، الذي تصدره وزارة الثقافة ، فلسطين ، 2004 .

ما تبقى لكم ، دار الطليعة ، بيروت ، 1969 .

أم سعد ، دار العودة ، بيروت ، 1969 .

عائد إلى حيفا ، دار العودة ، بيروت ، 1969 .

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك) ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، 1980 .

العاشق ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، 1980 .

و العاشق و الأعمى الأطرش و برقوق نيسان (ثلاث روايات غير كاملة) ، نشرت ضمن أعماله الكاملة .

العبيد أو اللوتس الأحمر الميت (رواية نشرت على حلقات في مجلة الطليعة الكويتية ، من العدد 32 في 22 ماي 1963 إلى العدد 48 في 11 سبتمبر ، و لم تنشر في كتاب .

---

[1] ينظر : المرجع السابق، ص 134 .

[2] المرجع النفسه ، ص 10 .

فمن هنا نرى أن الروايات الأربعة فقط (رجال في الشمس ، ما تبقى لكم ، أم سعد ، عائد إلى حيفا) هي الروايات الكاملة ، و التي نشرت و غسان على قيد الحياة . أما بقية الروايات فقد تم نشرها بعد موته ، و هي روايات غير كاملة .

و في القصة يعتبر غسان قاص نابغ ، فقد ترك وراءه خمس مجموعات قصصية ، " تميزت برغبة إبداعية صارمة ، هادفة"[1] . و تتمثل هذه المجموعات في :

موت سرير رقم 12 ، مكتبة منيمنة ، بيروت ، 1960 .

أرض البرتقال الحزين ،دار الفجر ، الاتحاد العام لطلبة فلسطين في لبنان ، بيروت ، 1963 .

عالم ليس لنا ، دار الطليعة بيروت ، 1965 .

عن الرجال و البنادق ، دار الآداب ، بيروت ، 1968 .

القميص المسروق و قصص الأبحاث العربية ، بيروت ، 1982 .

و ما لم يعرف من أدب غسان كنفاني ، (تضم 5 قصص قصيرة) ، جمع و تقديم سليمان الشيخ ، المؤسسة العربية الدولية للنشر / دار الشباب ، نيقوسيا ، 1986 .

و المسرحية قد نشر ثلاث مسرحيات هي :

المسرحية الأولى هي مسرحية الباب ، 1964 . المسرحية الثانية هي جسر إلى الأبد ، 1965 . و المسرحية الثالثة هي القبعة و النبي ، 1967 .

و قد نشر أيضا كُتبا أخرى – غير الرواية و القصة و المسرحية – تتمثل في :

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 48 – 1966 ، بيروت ، 1966 .

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ، بيروت ، 1968 .

في الأدب الصهيوني ، بيروت ، 1967 .

[1] خليل أحمد خليل ، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين ، ص 997 .

المنظمة الإشتراكية الإسرائيلية ما تسبن ، دار منيمنة ، بيروت .

ثورة 36 – 39 في فلسطين خلفيات و تفاصيل و تحليل شؤون فلسطينية ، ، بيروت ، 1972 ، ط 2 ، دار كنعان ، دمشق ، 1990 .

المدافع عكا ، دار الأسوار ، 1978 .

المقاومة و معضلاتها ، (دراسة) .

ثم أشرقت آسيا (أدب الرحلات) حول زيارته إلى الصين ، صدر في حلقات عام 1965 .

و أيضا ألّف كتب للأطفال ، تتمثل في :

أطفال غسان كنفاني ، دار الفتى العربي ، بيروت ، 1980 .

القنديل الصغير .

الكتاب للجميع – السفير ، 2002 .

و فيما يخص رسائله إلى غادة السمّان ، فقد قامت هذه الأخيرة بإخراجها للناس ، و تم نشرها تحت عنوان " رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمّان " ، و قد نشرتها دار الطليعة في بيروت سنة 1992 . و هذه الرسائل هي " نصوص عشق متوحشة ، فالمناضل الجيد عاشق جيد بالضرورة . كنفاني كما تكشف عنه سطوره في الرسائل ، يكتب نصا متوهجا من دون أقنعة . و لعله في مثل هذه الاعترافات تكمن خصوصية كنفاني ، فهي إضافة أصيلة إلى نصه الآخر ، الثوري و المقاوم " [1] .

غسان كنفاني في كل كتاباته – ما عدا رسائله إلى غادة – تخدم قضيته . فكان يملك هدف واضح و سامي ، ذو غرض نبيل . كما أن هذه الكتابات قد أثرت المكتبة العربية .

[1] ينظر : أوس داوود يعقوب ، الشهيد غسان كنفاني .

2 – الزمن في الرواية :

2 – 1 – مفهوم الزمن :

2 – 1 – 1 – لغة :

جاء معنى الزمن في معجم مقاييس اللغة " الزاء و الميم و النون أصل واحد يدل على وقت من الوقت : من ذلك الزمان ، و هو الحين قليله و كثيره ، يقال زمان و زمن ، و الجمع أزمان وأزمنة "[1] .وفي القاموس المحيط: " محرّكة و كسحاب : العصر و اسمان لقليل الوقت و كثيره ج : آزمان و أزمنة و أزمن . و لقيْتُه ذات الزُّميْن ، كالزُّبيْر : تريد بذلك تراخي الوقت "[2] .أما في لسان العرب فجاء تعريفه : " الزّمن الزمان اسم لقليل الوقت و كثيره ، و الجمع أزمن و أزمان و أزمنة "[3] .

2 – 1 – 2 – اصطلاحا :

يقول عبد المالك مرتاض عن الزمن ، أنه " مظهر وهمي يزمنن الأحياء و الأشياء فتتأثر بمضيه الوهمي غير المرئي "[4] ، و يضيف أن الزمن "كالأكسجين ، يعايشنا في كل لحظة من حياتنا و في كل مكان من حركاتنا ، غير أننا لا نحس به ، و لا نستطيع أن نتلمسه ، و لا نراه ، و لا أن نسمع حركته الوهمية على كل حال و لا نشم رائحته إذ لا رائحة له و إنما نتوهمه ، أو نتحقق أننا نراه في غيرنا مجسدا في شيب الإنسان و تجاعيد وجهه ، و في سقوط شعره و تساقط أسنانه ، و تقوس ظهره ، و اتباس جلده "[5] . من خلال هذا كله يتضح أن الزمن هو شيء مجرّد و وهميّ لا محسوس . فنحن لا يمكن أن نراه و لا نسمعه و لا نشعر به ، فقد نراه من خلال الأحياء و الأشياء التي يتمظهر عليها و يتجسد فيها ، فالزمن يمثل الحياة التي يعشها الإنسان ، من خلال المراحل العمرية

---

[1] أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، ص22 .

[2] الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ص 1203 .

[3] ا بن منظور ، لسان العرب ، مجلد 13 ، ص199 .

[4] عبد المالك مرتاض ، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد ، مجلة عالم المعرفة ، ع 240 ، الكويت ، ديسمبر 1998 ، ص 172 .

[5] المرجع السابق ، ص 173/172 .

التي يمر بها الإنسان ، فهو مقوم أساسي من مقومات حياة الإنسان. فالزمن كالنهر الجاري ، حيث أنه يمضي عبر مسار ثابت و منتظم و مستمر إلى غير أجل . و ما مضى لا يمكن أن يعود و لا يمكن أن يعوض ، لأن الأحداث في الحياة تتوالى بشكل لا رجوع فيه . و الزمن متعدد المفاهيم من مجال إلى آخر ، ذلك لاختلاف وجهة النظر ، فكل مجال يعطيه دلالة خاصة به . فالزمن في علم النفس غير الزمن في الفيزياء ... ، كما أن الزمن في الرواية مختلف عن الزمن في المجالات الأخرى .

و يعد الزمن في الرواية من بين أهم الركائز التي تنبني عليه ، حيث أنه " لا سرد بدون زمن ، فمن المتعذر أن نعثر على سرد خال من الزمن "[1] ، حيث أنه " لا خيال للسرد بين أن يشير إلى زمنيته ، أو لا يشير ، فالمسيرة الروائية لا يمكنها أن تنطلق ما لم نحدد لها عتبة زمنية "[2] . فللزمن مكانة مهمة في العمل الروائي ، فمن المستحيل أن يكتب الروائي روايته دون أن يحدد الزمن ، و لا يمكننا تصور أي عمل أدبي بدون زمن، فلكل رواية زمنها الخاص لأنه يشكل جوهرها . و المعروف عن الزمن أنه يمشي على مسار مألوف ، يبدأ من الماضي ثم الحاضر و بعدها المستقبل ، لكن في العمل الروائي يحتاج الكاتب إلى تلك القدرة اللا محدودة ، و " يحتاج إلي شيء من البراعة و الاحترافية ، و الذكاء الأدبي "[3] ، للتلاعب بالزمن داخل الرواية ، و يشمل في ذلك " تقليب الأحداث ، و تشويش بنائها ، بتقديم ما يجب أن يؤخر ، و تأخير ما يجب أن يقدم "[4] ، يظهر من خلال هذا أن الزمن في الرواية يختلف عن الزمن الطبيعي ، فهو في الرواية يتداخل في بعضه البعض ، حيث أن أحداث الرواية تقع في ترتيب واضح ، لكن طريقة روايتها قد تختلف فيتقدم حدث عن حدث أخر ، فلا تتقيد الرواية بترتيبها الأصلي ، و هذا التشويش لا يحدث أي خلل في الرواية ، بل العكس يزيد من متعة القارئ و يحدث فيه الفضول ، لذلك " أصبح الروائيون الكبار يعنتون أنفسهم أشد الإعنات في اللعب بالزمن "[5] .

---

[1] حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي الفضاء الزمن الشخصية ، المركز الثقافي ن بيروت/لبنان ، الدار البيضاء/المغرب ، ط1 ، 1990 ، ص 117 .

[2] المرجع نفسه ، ص 117 .

[3] عبد المالك مرتاض ، في نظرية الرواية ، ص 192 .

[4] المرجع نفسه ، ص 192 .

[5] المرجع السابق ، ص 193 .

2– 2 – آليات الزمن:

2 – 2 – 1 – المفارقات الزمنية :

هي الآليات التي تقوم بتشويش الترتيب الزمني للأحداث ، فتتداخل الأحداث في بعضها البعض ، فيقدم ما في الأخير ، و يؤخر ما في المقدمة . و كل هذا يحدث بواسطة آليتين هما الاسترجاع و الاستباق . الاسترجاع " يروي للقارئ فيما بعد ، ما وقع من قبل "[1] ، و الاستباق " عندما يعلن السرد مسبقا عما سيحدث قبل حدوثه "[2] .

2 – 2 – 2 – الإيقاع الزمني :

أو ما يسمى بالديمومة ، عبارة عن آليات تقوم بتسريع و إبطاء العملية السردية . و لتسريع السرد يلجأ الكاتب إلى الخلاصة و الحذف ، الخلاصة " هو سرد أحداث و وقائع مرّت في مدة طويلة ... في جملة واحدة أو كلمات قليلة . إنه حكيّ موجز و سريع و عابر للأحداث دون التعرض لتفاصيلها "[3] ، و الحذف هو " حذف فترة طويلة أو قصيرة من زمن القصة و عدم التطرق لما جرى فيها من وقائع و أحداث ، فلا يذكر عنها السرد شيئا "[4] . و لتعطيل السرد يعتمد الكاتب على المشهد و الوقفة ، المشهد هو " المقطع الحواري ، حيث يتوقف السرد و يسند الكلام للشخصيات "[5] ، الوقفة " هي ما يحدث من توقفات و تعليق السرد ، بسبب لجوء السارد إلى الوصف و الخواطر و التأملات "[6] .

---

[1] محمد بوعزة ، تحليل النص السردي تقنيات و مفاهيم ، دار الآمان ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الرباط/المغرب ، الجزائر العاصمة/الجزائر ، بيروت/لبنان ، ط1 ، 1431هـ/2010م ، ص 88 .

[2] المرجع نفسه ، ص 89 .

[3] المرجع نفسه ، ص 93 .

[4] المرجع نفسه ، ص 94 .

[5] المرجع نفسه ، ص 95 .

[6] المرجع نفسه ، ص 96 .

2 – 3 – الزمن في رواية عائد إلى حيفا :

تعج هذه الرواية بالاسترجاع ، و شكّل الاسترجاع حيّزا هاما في هذه الرواية . فمن خلاله تمكنا من معرفة ماضي تلك الشخصيات و الأحداث التي وقعت في الماضي . فقد عادت بنا ذاكرة كل من (سعيد و زوجته صفية) إلى أحداث 21 نيسان 1948 .

"كان يعرفها حجرا حجرا و مفرقا وراء مفرق ، فلطالما شقّ تلك الطرق بسيارته "[1] .

" و فجأة جاء الماضي ، حادا مثل السكين ... ، جاء الماضي الراعب بكل ضجيجه ، و لأول مرة منذ عشرين سنة تذكر ما حدث بالتفاصيل و كأنه يعيشه مرة أخرى "[2] .

" صباح يوم الأربعاء ، 21 نيسان ، عام 1948 .

كانت حيفا مدينة لا تتوقع شيئا . رغم أنها كانت محكومة بتوتر غامض .

و فجأة جاء القصف من الشرق ، من تلال الكرمل العالية . و مضت قذائف المورتر تطير عبر وسط المدينة لتصب في الحياء العربية .

و انقلبت شوارع حيفا إلى فوضى و اكتسح الرعب المدينة التي أغلقت حوانيتها و نوافذ بيوتها .

...حيث كانت حيفا تغيم وراء غبش المساء و غبش الدموع "[3] .

فهذا الاسترجاع شغل تقريبا سبع صفحات ، فيه صوّر لنا غسان المأساة التي تعرّض لها سكان مدينة ؛ الطرد من منازلهم ، و الخروج منها بشكل قسري ، و الاضطهاد الذي تعرضوا له ، فقد تم نفيهم خارج حيفا ، فقادوهم إلى الساحل حتى يركبوا الزوارق التي ستوصلهم إلى منفاهم على الضفة الأخرى ، "كان الناس يتدفقون من الشوارع الفرعية نحو ذلك الشارع الرئيسي المتجه نحو الميناء "[4] ، أما سعيد أضحى يحاول الرجوع إلى بيته ، إلى زوجته و ابنه خلدون ، لكن " بات واضحا أنهم يدفعونه عن الشارع الرئيسي نحو الميناء ، فقد كانت الأزقة

---

[1] غسان كنفاني ، عائد إلى حيفا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت/لبنان ، ط6 ، 2004 ، ص 13 .

[2] الرواية ، ص 14 .

[3] الرواية ، من ص 15 إلى ص 22 .

[4] الرواية ، ص 18 .

المتفرعة عن الشارع الرئيسي مغلقة تماما ، و كان إذا يحاول الاندفاع في احدها ليتدبر أمر عودته إلى بيته ، يزجرونه بعنف ، أحيانا بفوهات البنادق و أحيانا بحرابها "[1] .

و الاسترجاع الثاني ، " مساء يوم الخميس ، 22 نيسان 1948 ، سمعت تورا زونستاين ... صوت بكاء طفل ... ، اضطرت إلى تحطيم الباب ، و كان الطفل في سريره منهكا تماما ، فحملته إلى بيتها ... ، و لم يكن من المعقول الاستمرار بالاحتفاظ بالصبي ، فحملته إلى مكتب الوكالة اليهودية في حيفا .

...و كان ذلك اليوم يوم الخميس الثلاثين من نيسان 1948 ، عندما دخل أفرات كوشن و زوجته مريام برفقة موظف من الوكالة اليهودية ... ، و يحمل طفلا عمره خمسة شهور ، إلى بيت سعيد في الحليصة

أما سعيد س و صفية فقد كانا في ذلك اليوم بالضبط يبكيان معا ، بعد أن عاد سعيد للمرة المئة فاشلا ، عاجزا عن الدخول إلى حيفا "[2] . ذكر لنا الكاتب تفاصيل عما حدث لخلدون ، بعد فشل وضعف الأبوين في العودة إلى منزلها لأخذ ابنهما خلدون و شدة المعاناة التي تعرضا لها جراء فقدهم لبيتهم و ابنهم خلدون ، الذي راح ضحية اضطهاد و تسلط الجيش الصهيوني على الفلسطينيين ، فقد تم إخراجهم من منازلهم ، و إبادتهم و نفيهم خارج حيفا . فقد ذكر لنا كيف تم العثور على خلدون ، و حالته التي بات فيها ، و كيف تم تبنيه من قبل زوجين يهوديين ، فلولا تلك الاسترجاعات لما عرفنا ما حدث مع سعيد في عام 1948 ، و لا عرفنا ما حدث لميريام و زوجها ، و لا عرفنا مصير خلدون الصغير .

وقد استعمل غسان كنفاني أيضا ، الاسترجاع من أجل المقارنة بالماضي قبل النفي و الحاضر بعد النفي .

" و مثلما كان يفعل قبل عشرين سنة تماما ، خفف سرعة سيارته إلى حدها الأدنى ... ، و انعطف بسيارته كما كان يفعل دائما ... ، و رغب أن يتوقف لحظة كي يقرأ على جذوعها أسماء محفورة منذ زمن ، و يكاد يتذكرها واحدا واحدا "[3] . إن تواجد (سعيد س) في نفس المكان (الذي كان يتواجد فيه قبل النفي) ، جعله يتذكر كل تفاصيل الطريق ، كما أنه عاش في الحاضر ما كان يعيشه في الماضي ، حيث أنه يسوق سيارته كما كان في الماضي . فتواجده في نفس المكان جعله يتذكر ذكرياته الأليمة ، " سقطت عليه الذاكرة كما لو أنه ضرب بحجرة ، و هناك فقط ، تذكر خلدون و انقبض يومها ، قبل عشرين سنة ، و مازال ، و الآن يزداد نبضه

[1] الرواية ، ص 18 .

[2] الرواية ، ص 45/44 .

[3] الرواية ، ص 27 .

قوة حتى كاد أن يسمعه "[1] . إن كل هذه الاسترجاعات تأكد أن المنفيّ نوستالجي بامتياز ، فعيشهم في الغربة كالمشردين مطرودين من أوطانهم ، عزّز في نفوسهم مشاعر كلها شوق و حنين لوطنهم الذي هُجِّروا منه بقوة .

و الاستباق في رواية (عائد إلى حيفا) نلحظه – أولا قبل البدء في الرواية — في العنوان " عائد إلى حيفا " ، هذا العنوان مهّد لنا شيئا سيحصل في المستقبل . فكل منفي يتمنى العودة إلى وطنه . و في هذه الرواية كان سعيد يريد العودة إلى حيفا وطنه الحبيب ، الذي ترك فيه آماله و بيته و ابنه . و قد جاء هذا المقطع ليؤكد نية البطل في العودة إلى حيفا ، " حين وصلا إلى مدخل حيفا ... ، هذه هي حيفا إذن ، بعد عشرين سنة "[2] . هذا الاستباق حقق غايته ، فقد تحول إلى واقع .

كما تظهر فكرة العودة إلى حيفا في العشرين سنة الماضية ، قال سعيد في نفسه : " لا فرار و أن الفكرة التي كانت هناك طول عشرين سنة قد ولدت ، و لا سبيل إلى دفنها من جديد "[3] ، هذا القول يدل على أن فكرة رؤية حيفا كانت منذ زمن تدور داخل رؤوسهم . و الجواب على هذا الاستباق ، " لنذهب غدا إلى حيفا ، نتفرج عليها على الأقل "[4] ، و " لماذا لا نقتنص الفرصة و نذهب "[5] . فقد كانت زيارة حيفا عبارة عن حلم ، بعد أن نفيوا و هُجِّروا منها بشكل قمعي، فاستبق به الكاتب ليُرِيه للقارئ قبل تحقيقه . لكن استباق كنفاني وصل إلى غايته ، زيارة الوطن بعد النفي .

و الخلاصة في هذه الرواية استخدمها الكاتب لإبراز معاناة كل من سعيد و زوجته صفية ، معاناة النفي و الطرد و التشتت في المنفى ، و معاناة ترك ابنهما خلدون : الخلاصة الأولى ، " لكنها ظلت صامتة و سمع صوتها الخافت يبكي بما يشبه الصمت ، و قدر لنفسه العذاب الذي تعانيه ، و عرف أنه لا يستطيع معرفة العذاب على وجه الدقة ، و لكنه يعرف أنه عذاب كبير ، ظل هناك عشرين سنة "[6] ، و الخلاصة الثانية " ظل المر كله معلقا في سقف أيامهما و لياليهما طوال أسبوع ، يأكلانه مع طعامهما و يعلكانه و ينامان معه و لكنهما لم يتكلما حوله أبدا " . فالخلاصتان تقدمان ما عانه سعيد و صفية إثر التفكير المستمر بالوطن ؛ ببيتهما

---

[1] الرواية ، ص 28 .
[2] الرواية ، ص 10 .
[3] الرواية ، ص 25 .
[4] الرواية ، ص 26 .
[5] الرواية ، ص 27 .
[6] الرواية ، ص 14/13 .

و ابنهما بشكل خاص ، فكل منها عانى جراء هذا الفراق و النفي كل بطريقته ، لكن و لا واحد منهما تجرأ و تكلم عن الموضوع فقد تركاه في ينبش في ذاكرتيهما ، لكنهما كل واحد منهما فهم الأخر رغم سكوته ، لأنه لا يفهم معاناة المنفى و الفارق إلا من عاش تلك المعاناة . و استُخدمت الخلاصة هنا لإشارة بشكل سريع إلى آلام التي تحملاها سعيد و زوجته جراء التهجير القسري و النفي .

و تقنية الحذف في هذه الرواية ، نبدأها من الجملة المكررة " عشرين سنة "[1] ، تكررت هذه الجملة في جلّ الصفحات ، أو تكاد لا تخلو صفحة منها . فتكرارها دليل على مدى أهميتها ، فهي تعبر عن القسوة و الألم و البعد و الفراق و العذاب الذي عاشته الشخصيات الفلسطينية في هاته الرواية، فكل شخصية من شخصيات الرواية لها قصتها مع العشرين سنة ، فسعيد و زوجته قاسيا معاناة التهجير ، أما خلدون بهذه المدة تنكر لأصله فأصبح يهوديا ،فقد تبناه الزوجان اليهوديان ، و يمكن القول بأنهما استوليا عليه كما استوليا على الأشياء المادية الأخرى ، و يقول سعيد في هذا الصدد : " لقد علموه عشرين سنة كيف يكون . يوما يوما ، ساعة ساعة ، مع الأكل و الشرب و الفراش "[2] ، و يؤكد خلدون (أو دوف) على هذا : " منذ صغري و أنا يهودي . أذهب إلى الكنيس و إلى المدرسة اليهودية و أكل الكوشير و أدرس العبرية . و حين قالا لي أنني لست من صلبهما لن يتغير أي شيء . و كذلك حين قالا لي – بعد ذلك – أن والدي الأصليين هما عربيان ، لم يتغير أي شيء . لا ، لم يتغير أي شيء "[3] . فقد كان سعيد و صفية يحملان خلدون معهما في ذاكرتهما لعلهما يجداه ، فخلف ذلك معاناة طوال العشرين سنة ، و لما تحقق و وصلا إلى ابنهما ، تنكر لهما ، أصبح يهوديا بحتا ، تنكر لنداء الدم و اللحم . معاناة العشرين سنة كانت نتيجتها معاناة أكبر منها بكثير . حذفت تفاصيل كثيرة عن هذه المدة المحددة – عشرين سنة – لم يُذكر فيها كل المعاناة ، بل ذكر بشكل سطحي فقط ، و لم يتطرق أبدا إلى ذكر تفاصيل عن كيفية قضائهما للعشرين سنة . أما بالنسبة لفارس اللبدة فقد عانى أيضا في هذه العشرين سنة ، " و قد انتظرت عشرين سنة لأعود إليه "[4] ، فقد ذكر غسان انتظار و شوق و لهفة فارس اللبدة للعودة إلى بيته ، لكن لم يذكر إطلاقا كيف قضى هذه المدة .

---

[1] الرواية ، ص 66/56/51/49/47/31/29/28/27/25 .

[2] الرواية ، ص 48 .

[3] الرواية ، ص 65 .

[4] الرواية ، ص 51 .

و من الأمثلة التي اخترناها عن تقنية المشهد ، أو ما يسمى بالحوار نجد ، الحوار الفلسفي الذي دار بين سعيد و صفية لحظة وصولهما إلي حيفا ، " و قالت فجأة :

لم أكن أتصور أبدا أنني سأراها مرة أخرى .

و قال : أنت لا ترينها ، إنهم يرونها لك .

... و صاحت فجأة : ما هذه الفلسفة التي لا تكف عنها طوال النهار ؟ الأبواب و الرؤيا و أمور أخرى ، ماذا حدث لك ؟

ماذا حدث لي ؟

... ، و عاد يقول لها بهدوء : لقد فتحوا الحدود فور أن أنهو الاحتلال فجأة و فورا ، لم يحدث ذلك في أي حرب في التاريخ ... ، و الآن ، بعد ماذا ؟ لسواد عينيك و عيني ؟ لا . ذلك جزء من الحرب . إنهم يقولون لنا : تفضلوا انظروا كيف أننا أحسن منكم و أكثر رقيا . عليكم أن تقبلوا أن تكونوا خدما لنا ، معجبين بنا . و لكن رأيت بنفسك : لم يتغير شيء . كان بوسعنا أن نجعلها أحسن بكثير "[1] . فسعيد في نقاشه هذا ، متيقن أن المنفي و الذي هُجّر من وطنه بسبب الاحتلال لن يعود إلى وطنه ، بشكل بسيط ، فهو متيقن أن سماح إسرائيل للفلسطينيين برؤية وطنهم ، كان جزءا من خطة أخرى للحرب ، فهذا السماح ، لم يكن شفقة على الفلسطيني و لا بروح إنسانية ، بل كان لإهانة الفلسطينيين . فتجعل إسرائيل من نفسها شخصية كريمة ، لأنها سمحت لهم بالعودة إلى حيفا ، على الرغم من نفيهم خارجها ، و لكي يظْهِر للفلسطيني أنه أقل من الإسرائيلي مرتبة ، ففي نظرهم أنهم غيروا حيفا و جعلوها أحسن مما تركها الفلسطينيون ففي تصورهم أنهم قد حوّلوها إلى جنة . لكن ذلك لم يحدث ، بل كل ما فعلوه ، أنهم قاموا بإخراج و نفي المواطنين الأصليين و تهجيرهم ، و جعلهم يعانون الويلات جراء هذا الطرد من الوطن .

[1] الرواية ، ص ، 12 .

و المشهد الثاني ، دار بين سعيد و ميريام (والدة دوف بالتبني) ، حيث أنه دار في منزل سعيد في الحليصة بحيفا ، عندما دخل مع زوجته لرؤية بيته ، " منذ زمن ، و أنا أتوقعكما ....هل تعرفين من نحن ؟...أنتما أصحاب هذا البيت "[1] .

هذا الحوار دليل على أن اليهودي استولى على بيت الفلسطيني ، فإسرائيل استعملت القوة لإخراجه من بيته و وطنه ، و قامت بإعطاء بيوت الفلسطينيين المنفيين خارج وطنهم إلى

مواطنيها ، رغم معرفة اليهودي بذلك ، و معرفته أنه ليس ملكا له ، إلا انه قبل ذلك البيت برحب و سعة ، فاستقرّ فيه و استولى عليه ، و على ما في داخله ، فجعله ملكا خاصا به .

و المشهد الثالث ، هو الحوار الذي دار بين سعيد و ابنه خلدون (دوف اليهودي) ،

" ماذا تريد يا سيدي ؟ ... ، أنت في الجيش ؟ من تحارب ؟ لماذا ؟... ، ليس من حقك أن تسأل هذه الأسئلة ، أنت على الجانب الآخر . ... ، دعونا نتحدث كأناس متحضرين .... ، أنت لا تريد أن تتفاوض . أليس كذلك ؟ كنت تقول أنك ، أو أنني ، في الجهة الأخرى . ... ، بعد أن عرفت أنكما عربيان كنت دائما أتساؤل بيني و بين نفسي : كيف يستطيع الأب و الأم أن يتركا ابنهما و هو في شهره الخامس و يهربان ؟ و كيف يستطيع من ليس أمه و ليس أبوه أن يحتضناه و يربيانه عشرين سنة ؟ عشرين سنة ؟ ...كنا نتوقع العثور عليك ، و لو بعد عشرين سنة ، و لكن ذلك لم يحدث ، لم نعثر عليك ، و لا أعتقد أننا سنعثر عليك "[2] .

هذا المشهد يؤكد أن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، لأن ما نتعلمه في صغرنا يبقى راسخا حتى الممات ، فخلدون الطفل ذو خمسة أشهر ، تربي في جو يهودي ، بعد أن تركاه والديه الفلسطينيين ، و لا يستطيع أن يتبنى الروح الفلسطينية ، فجذوره غُرست في تربة إسرائيلية ، لذلك أثمر مواطنا يهوديا .

فغسان كنفاني أعطى بهذا المشهد درسا قيما للفلسطيني ، لأنه استسلم و ترك وطنه ، فاحتله اليهودي جعله ملكا خاصا به ، و جعله يمشي تحت قوانينه ، فلماذا يبكي الفلسطيني على فقدانه لوطنه بعد أن قبِل بالخروج منه و تركه . فرمز غسان لفلسطين قبل الاحتلال بخلدون الذي تركه والداه ، و فلسطين المحتلة بدوف الذي تبناه الزوجان اليهوديان ، فتشبع بالروح الإسرائيلية .

---

[1] الرواية ، ص 32 .

[2] الرواية ، ص من 62 إلى 67 .

و استعمل الكاتب تقنية الوقف ، بكثرة لوصف بيت سعيد ، و بدأ وصفه من الخارج ، " الآن يطل بمقدمة شرفاته المطلية باللون الأصفر "[1] . و بعدها تقدم قليلا إلى المبنى ، " الجرس ، و لاقطة الباب النحاسية ، و خربشات أقلام الرصاص على الحائط ، و صندوق الكهرباء ،و الدرجة الرابعة المكسورة من وسطها ، و حاجز السلم المقوس الناعم الذي تنزلق عليه الكف ، و شبابيك المصاطب ذات الحديد المتصالب "[2] . ثم شرع يصفه من الداخل ، " المدخل أصغر مما يتصوره و أكثر رطوبة ... ، و على الجدار المقابل سجادة شامية صغيرة "[3] ، بعدها انتقل إلى غرفة الجلوس ، " مقعدين من أصل خمسة مقاعد هما من الطقم الذي كان له ، أما المقاعد الثلاثة الأخرى فقد كانت جديدة ، و بدت هناك فظة و غير متسقة مع الأثاث . و في الوسط كانت الطاولة المرصعة بالصدف هي نفسها ، و إن كان لونها صار باهتا ، و فوقها استبدلت المزهرية الزجاجية بأخرى مصنوعة من الخشب ، و فيها تكومت أعواد من ريش الطاووس ،كان يعرف أنها سبعة أعواد ... ، أخد يعدها واحدة واحدة .كانت خمسة فقط ... ، الستائر ... ، استبدلت بستائر ذات خطوط زرقاء "[4] . أراد غسان كنفاني من خلال هذا الوصف الدقيق للبيت أن يظهر حقيقة اليهودي الذي احتل علي البيت و على كل ما بداخل ، و جعلها ملكية خاصة به ، فلم يكلف نفسه قط بتغيير أثاثه . فهذا البيت بقي كما تركه سعيد قبل عشرين مع تغيير طفيف .

3 – المكان في الرواية :

3 – 1 – مفهوم المكان :

3 – 1 – 1 – لغة :

المكان في اللغة " موضع كينونة الشيء فيه ، من الجذع كوّن ، حدث ، و قد كان كونا و كينونة "[5] .

---

[1] الرواية ، ص 28 .

[2] الرواية ، ص 29 .

[3] الرواية ، ص 31 .

[4] الرواية ، ص 31 .

[5]– ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد 13 ، ص363 .

كما أنه " الحاوي للشّيء المستقر من التمكن و المكان الموضع جمعه أمكنة و أماكن "[1] .

3 – 1 – 2 – اصطلاحا :

المكان عبارة عن " مجموعة الأشياء المتجانسة من الظواهر و الحالات و الوظائف و الأشكال و الصور و الدلالات المتغيّرة التي تقوم بينهما علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل الامتداد و المسافة "[2] ، و هو أيضا ، "كل ما عنى حيّزا جُغرافِيا حقيقيا ، من حيث نُطْلق الحيّز في حدِّ ذاته على كل فضاء خرافي ، أو أسطوري أو كل ما ينّد عن المكان المحسوس "[3] . يعد المكان في الرواية عنصرا مهما ، لكن المكان الروائي يختلف كثيرا عن المكان الحقيقي الجغرافي ، حيث أن المكان الروائي أو الفضاء الروائي يتشكل فقط من خلال الكلمات فقط ، فلا يمكن رؤيته لكن يمكن تخيله من خلال الكلمات التي عبّرت عنه . و يُؤكد هذا الكلام حسن بحراوي الذي يقول : " إن الفضاء الروائي ...، لا يوجد إلا من خلال اللغة ، فهو فضاء لفظي ... بامتياز ... ، إنه فضاء لا يوجد سوى من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب "[4] . أصبح المكان " عنصرا حكائيا بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد أصبح الفضاء الروائي عنصرا مكونا أساسيا في الآلية الحكائية "[5] ، حيث " لا يمكن عزله عن باقي المكونات السردية الأخرى ، و إنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد "[6] . إن المكان مكون جوهري للرواية ، فلم يعد فقط ذلك الديكور الذي يستخدمه الكاتب للأحداث ، بل أضحى هو الآخر عنصرا فعالا في تلك الأحداث . إن بين المكان و بين العناصر السردية الأخرى – من حدث و زمن و شخصية – روابط و صلات ، و هذه العلاقات هي التي تجعل من الرواية في انسجام و تكامل تام ، من دون كل هذه العلاقات و الروابط و الصلات يفقد السرد رسالة فلا يمكن أن تتضح رسالته بشكل واضح و دقيق .

---

[1]– الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ص1235 .

[2]– باديس فوغالي ، الزمان و المكان في الشعر الجاهلي ، عالم الكتب الحديث ، إربد الأردن ، د ط ، 2008 ، ص175,.

[3] المرجع نفسه ، ص 176 .

[4] حسن البحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ص 27 .

[5] المرجع نفسه ، ص 27 .

[6] ينظر : المرجع نفسه ، ص 16 .

3 – 2 – المكان في رواية عائد إلى حيفا :

3 – 2 – 1 – الأماكن المغلقة في الرواية :

3 – 2 – 1 – 1 – البيت :

يعتبر البيت الحضن الدافئ للذكريات ، يشعر الإنسان فيه بالراحة و الأمن و الطمأنينة و الأمن ، فيه عاش و ترعرع و تربى ، فيصبح فراقه صعبا جدا . أما المنْفِيّ فيعتبر بيته الذي في وطنه ،كنزا ثمينا قد نزع منه . يشعر المنفيّ بنازع قوي للعودة إليه ، حيث أنه مرتبط بشكل كبير بيه ، و لا يمكن أن تتغير علاقته به ، و لا يمكن أن يتغير إحساسه تجاهه ، فمهما طال بعد و غياب المنْفِيّ عن بيته لا يستطع نسيانه ، على العكس ، فإن ذلك يزيد من مشاعر الشوق و الحنين إليه . و في روايتنا هذه يعد بيت سعيد في حيفا ، مركز الأحداث ، فقد حضر بقوة في الرواية. هذا البيت ذو مكانة مهمة لدى سعيد ، " ذلك الذي عاش فيه ، ثم عيشه في ذاكرته طويلا "[1] ، فعلى الرغم من تعرضه للنفي و التهجير و الخروج منه ، إلا أنه لم يستطع إخراجه من عقله ، بقي داخل ذاكرته . فهذا البيت يحمل جميع ذكرياته بحُلّوها و مرّها .اعتبره سعيد أكثر أمنا ، إذا " استأجر بيته الصغير في تلك المنطقة التي حسب أنها أوفر أمنا "[2] . لكن انقلبت الموازين ، فاضطر للخروج من بيته عنوة ، فعاش في منفاه ، و بقي بيته الذي يقع في حيفا عالقا في ذاكرته ، فأضحى ينبش فيها ، فالبعد عن الشيء يزيد من قيمته لدى الإنسان . بعد عشرين سنة فتحت إسرائيل البوابة و سمحت للفلسطينيين بزيارة بيوتهم التي أُخرجوا منها . فقرر سعيد الذهاب إلى حيفا ، و قال لزوجته : " لنذهب إلى حيفا ... ، نمر قرب بيتنا "[3] ، فهو يعرف انه لا يحق له البقاء في بيته ، فهو منفي ، و حقه الوحيد هو زيارته و رؤيته فقط لا أكثر . و حين دخل لرؤية بيته ، بدا له " أصغر قليلا مما تصوره و أكثر رطوبة ، و استطاع أن يرى أشاء كثيرة اعتبرها ذات يوم ، و مازال ، أشياءه الحميمة الخاصة التي تصورها دائما ملكية غامضة مقدسة لم يستطع أي كان أن يتعرف عليها أو أن يلمسها "[4] . فقد كان بيته كنزه الثمين ، و الأشياء التي في داخله اعتبرها جواهر ثمينة ، فلما عاد إليه بعد عشرين سنة ، وجد أن كنزه قد أخذه شخص آخر ، و هذا الشخص هو عدوه اللدود ، مما حز في نفسه مشاعر الغضب ، فأصعب

---

[1] الرواية ، ص 28 .

[2] الرواية ، ص 16 .

[3] الرواية ، ص 26 .

[4] الرواية ، ص 31 .

شيء يمكن أن يتعرض له الشخص هو رؤية أشيائه الخاصة ، قد استولى عليها عدوه . فهؤلاء الغرباء مازالوا يستعملون أغراض سعيد ، بعد ما استولوا على منزله . هم يتنعمون بالبيت و الأغراض ، أما سعيد و زوجته يعانيان من التشرد و الضياع و المنفى .

و الكاتب عندما عندما عمد إلى وصف بيت سعيد ، سلّط الضوء على المظهر الداخلي للبيت ، " مقعدين من أصل خمسة مقاعد هما من الطقم الذي كان له ، أما المقاعد الثلاثة الأخرى فقد كانت جديدة ، و بدت هناك فظة و غير متسقة مع الأثاث . و في الوسط كانت الطاولة المرصعة بالصدف هي نفسها ، و إن كان لونها صار باهتا ، و فوقها استبدلت المزهرية الزجاجية بأخرى مصنوعة من الخشب ، و فيها تكومت أعواد من ريش الطاووس ،كان يعرف أنها سبعة أعواد ... ، أخد يعدها واحدة واحدة .كانت خمسة فقط ... ، الستائر ... ، استبدلت بستائر ذات خطوط زرقاء "[1] . ركز غسان في وصفه هذا بشكل كبير ، على التغيير الذي حدث داخل البيت فسيراه الشخص العادي على أنه تغيير بسيط فقط في البيت ، لكن وجهة نظر سعيد ليست كذلك ، بل هو يراها تغييرا كبيرا في تشكيلة البيت . فغسان قد استعمل البيت ليرمز إلى فلسطين ، التي أُخرِج منها مواطنوها مشردين و منفيين ، و استولى عليها الإسرائيليون . فقد جسد من خلال هذا الوصف بكاء الفلسطيني على ضياع وطنه الذي احتله الإسرائيلي ، و جعله ملكه الخاص . و المَنْفِيّ يعيش في منفاه مشردا و في حالة ضياع ، متعلقا بالماضي الذي ذهب ، و لن يعود ، فلم يستطع قط الانخراط الكلي و العيش في الحاضر . فمجرد عودة سعيد إلى بيته لرؤية ، انهالت عليه الذكريات دفعة واحدة ، و انقبض قلبه . عاد إلى بيته الذي كان يعتبره المكان الحميم و الأليف و الذي يوفر له الأمن ، لكن لم يعد كذلك بعد الآن ، بل أضحى معاد لما كان في الماضي .

3 – 2 – 1 – 2 – نزل المهاجرين :

مكان يؤوي اليهود المهاجرين ، الذين تعرضوا للاضطهاد من قبل الألمان . نزل في هذا النزل الزوجان اليهوديان – ميريام و أفرات كوشن – والدا دوف بالتبني ، قبل أن يتم إسكانهما في حيفا ، فهو " لم يكن يعرف على الإطلاق ، أو حتى يخمن ، أنه سيجري إسكانه هناك "[2] . فسكان هذا النزل لم يكونوا على دراية إلى أي وجهة سيتم إرسالهم ليسكنوا فيها . و هذا أفرات كوشن انتقل إلى " الهادار ، حيث أُسكِن في غرفة صغيرة من

[1] الرواية ، ص 31 .

[2] الرواية ، ص 38 .

بناء مزدحم بالسكان . و تبين لأفرات كوشن بعد فترة ، أن جميع الغرف في البناء يشغلها مهاجرون جدد ، ينتظرون هناك نقلهم إلى أمكنة أخرى فيما بعد ، و ليس يدري إن كانوا قد أطلقوا عليه اسم نزل المهاجرين ، و هم يتلقون كل ليلة لتناول العشاء ، أم أن ذلك الاسم كان معروفا قبلهم ، و أنهم استعملوه فقط "[1] . فالكيان الصهيوني يقوم بنفي المواطنين الفلسطينيين الأصليين ، و تهجيرهم بشكل قسري ، و جعلهم مشردين و يعيشون في ضياع . و هذا التهجير يقومون به من أجل المهاجرين اليهود ، فيقومون بإخلاء البيوت – بيوت الفلسطينيين– فيسكنها اليهودي الذي أحضروه من الخارج إلى نزل المهاجرين ، فيعيش في تلك البيوت بكل أريحية و نعيم ، و ذلك كله على حساب الفلسطيني . هذه هي السياسة القمعية التي يقومون بها في حق الفلسطيني لا يهمهم ما سيصيب الفلسطيني جراءها ، فهم يعانون بسببها ، من ويلات المنفى ، ومع ذلك لم يرحموهم ، بل استولوا على البيوت و جعلوها ضمن أملاكهم الخاصة .

أما أفرات كوشن كان حظُه أن يتم إسكانه في حليصة ببيت سعيد في حيفا ، ففي اليوم الذي ذهب إلى مكتب الوكالة اليهودية ، أنهم " عرضوا عليهم بيتا في حيفا نفسها ،كامتياز خاص ، إن هو قبل بتبني الطفل "[2] ، قبِل أفرات كوشن بالعرض ، قاموا بإسكانه في ذلك البيت ، بيت سعيد و قام بتبني الطفل ، فاستولوا على البيت و جعلوه بيتهما ، و قاموا بتربية الطفل على الأسس و الأصول و الثقافة اليهودية .

هذا النزل يحمل في داخله المهاجرين الذين سيقومون بالاستيلاء على بيوت الفلسطينيين ، الذين شرّدهم الكيان الصهيوني ، و جعلهم يضيعون في غياهب المنافي .

3 – 2 – 1 – 3 – السيارة :

تندرج السيارة ضمن الأماكن المغلقة ، و السيارة التي ذكرت في هذه الرواية ، هي سيارة سعيد ، " الفيات الرمادية التي تحمل رقما أردنيا أبيض "[3] ، و صف الشكل الخارجي لهذه السيارة ، التي كانت وسيلة نقل لسعيد ، فبواسطتها عاد من منفاه (رام الله) إلى وطنه (حيفا) ، جاء من الحاضر لرؤية الماضي .

[1] الرواية ، ص 38 .
[2] الرواية ، ص 45 .
[3] الرواية ، ص 10 .

فمن خلال زجاج هذه السيارة وصف لنا غسان شوارع حيفا ، " فجأة جاء صوت البحر ... ، كانت الحقول تتسرب تحت نظره عبر زجاج السيارة ... ، كان الاسفلت يشتعل تحت عجلات سيارته ، و فوقه كانت الشمس ، شمس حزيران الرهيب "[1] . بعدها سرد لنا كيف أن سعيد ساق سيارة مثلما كانت يفعل قبل منفاه ، كأن الماضي يعيد نفسه ، " و مثلما كان يفعل قبل عشرين سنة تماما خفف سرعة سيارته إلى حدها الأدنى قبل أن يصل إلى ذلك المنعطف ، الذي يعرف أن سفحا صعبا يكمن وراءه ، و انعطف بسيارته كما كان يفعل دائما و تسلق السفح محتفظا بالموقع الصحيح في الطريق "[2] ، سعيد أعاد تجسيد الماضي لأنه في نفس المكان بسيارته هذه ، رغم أنه منفي منذ عشرين سنة إلا أنه يعرف الطريق الذي سيسلكه بسيارته ، فالمستوطنين تركوا كل شيء كما كان قبل نفي الفلسطينيين .

3 – 2 – 2 – الأماكن المفتوحة في رواية عائد إلى حيفا :

3 – 2 – 2 – 1 – المدينة :

ذكر غسان في روايته هذه مدينتين . مدينة رام الله ، هي المدينة التي يسكن فيها سعيد الآن ، منفاه ، لم يذكر الكاتب تفاصيل كثيرة عنها ، فقد أشار إليها فقط ، " منذ أن غادر رام الله في الصباح "[3] ، " إلى القدس إلى حيفا "[4] . و المدينة الثانية التي ذكرها ، هي مدينة حيفا . ركز كنفاني على هذه المدينة – مدينة حيفا – في سرده ، ذكرها في معظم صفحات روايته . فهي المحور الرئيسي ، أو بالأحرى هي المكان المركزي الذي حدثت فيه جميع أحداث رواية عائد إلى حيفا . حيفا ، المدينة التي كان يعيش فيها سعيد قبل نفيه ، " استأجر بيته الصغير في تلك المنطقة التي حسب أنها ستكون أوفر أمنا "[5] ، لكن " صباح الأربعاء ، 21 نيسان ، عام 1948 "[6] حدث ما لم يكن في الحسبان ، " فجأة جاء القصف من الشرق ، من تلال الكرمل العالية ، و مضت قذائف المورتر تطير عبر وسط المدينة لتصب في الأحياء العربية .

---

[1] الرواية ، ص 10/9 .
[2] الرواية ، ص 27 .
[3] الرواية ، ص 9 .
[4] الرواية ، ص 23 .
[5] الرواية ، ص 16 .
[6] الرواية ، ص 15 .

و انقلبت شوارع حيفا إلى فوضى ، و اكتسح الرعب المدينة التي أغلقت حوانيتها و نوافذ بيوتها "[1] ، فجعلوا الفلسطيني يخرج من مدينته رغما عنه ، فهجّروه و نفوه .

و بعد فتح بوابة مندبوم ، سمحوا للمواطن الفلسطيني بالدخول إلى حيفا و زيارتها دون البقاء فيها ، " حين وصل (سعيد س) إلى مشاريف حيفا ... ، أحس أن شيئا ربط لسانه . فالتزم الصمت ... الذاكرة ... انهالت عليه في داخل رأسه "[2] . فحين وصل سعيد إلى المدينة التي أخرج منها عنوة ، مدينته ، عادت الذكريات فعادت به إلى الماضي . فقال لزوجته :" هذه هي حيفا يا صفية "[3] ، هذه هي المدينة التي شرِّد منها و هُجِّر ، و تركها رغما عنه ، بقوله هذا لزوجته كأنه تعجب لبقائها على حالها مدة عشرين سنة ، فقد ظن أنهم سيقومون بتغييرها ، لكن لم يحدث ذلك ، بل وجدها كما كانت قبل عشرين سنة .

3 – 2 – 2 – 2 – الشارع و الطريق :

تعد شوارع و طرقات مدينة حيفا في هذه الرواية ، مسرحا لتحركات الشخصيات . فقبل نكبة 1948 كانت شوارع حيفا هادئة ، لكن بسبب هذه النكسة " انقلبت شوارع حيفا إلى فوضى ، و اكتسح الرعب المدينة االتي أغلقت حوانيتها و نوافذه بيوتها "[4] ، فالقصف الذي حدث في حيفا ، جعل من شوارعها فوضى عارمة ، فلم يستطع السكان البقاء في تلك الشوارع ، فهرعوا إلى الهرب ، حتى وجدوا أنفسهم في الميناء على وشك ركوب الزوارق التي ستأخذهم إلى منفاهم .

و بعد عشرين سنة فتحت بوابة مندلبوم ، فأصبحت هاته الشوارع مكانا للأحداث التي صادفت سعيد و صفية أثناء عودتهما إلى حيفا لزيارتها . فسعيد " طوال الطريق كان يتكلم و يتكلم و يتكلم ، تحدث إلة زوجته عن كل شيء "[5] ، أما صفية فقد كانت " منصرفة إلى التحديق نحو الطريق : تارة إلى اليمين حيث كانت المزارع تمتد على مدى البصر و تارة إلى اليسار حيث كان البحر "[6] . و حين " عبر الشارع و دخل الطريق الرئيسي انهار

[1] الرواية ، ص 15 .
[2] الرواية ، ص 9 .
[3] الرواية ، ص 10 .
[4] الرواية ، ص 15 .
[5] الرواية ، ص 10 .
[6] الرواية ، ص 11 .

الجدار كله ، و ضاعت الطريق وراء ستار من الدموع "[1] ، فانهالت عليه ذاكرته بالأسماء " في رأسه كما لو أنها تنفض عنها طبقة كثيفة من الغبار: وادي النسناس ، شارع الملك فيصل ، ساحة الحناطير "[2] ، عادت ذاكرته إلى الوراء عشرين سنة ، تذكر كل أسماء الشوارع و الطرقات ، لأن تلك الشوارع بقيت على عهدها ، كما كانت قبل المنفى . فهو " يسوق سيارته في حيفا دون أن يشعر بأن شيئا في الشوارع قد تغير "[3] .

3 – 2 – 2 – 3 – الميناء :

يعتبر الميناء في الرواية مكان مفتوح . فهو مفتاح الفرج ، و بوابة الحياة الهادئة و المستقرة ، و ذلك بالنسبة لأفرات كوشن و زوجته ميريام ، فقد " حملته شاحنة صغيرة مع أشيائه القليلة عبر الميناء "[4] . فبفضل الميناء دخل إلى فلسطين ، هاربا من الاضطهاد الذي كان من قبل الألمان . فاستقر و عاش بقية حياته في حيفا متنعما بالبيت الذي استولى عليه ، بيت سعيد الذي تم نفيه .

أما بالنسبة لسعيد و صفية فهو بوابة التهجير ، و الضياع في غياهب المنفى ، و المعاناة من ويلات المنفى ، و الشعور الدائم بالألم و الشوق و الحنين إلى حيفا ، بسبب هذا التهجير القسري . فقد " بات واضحا أنهم يدفعونه نحو الميناء ... ، يزجرونه بعنف بفوهات البنادق و أحيانا بحرابها "[5] . كان الميناء باب الجحيم و المعاناة ، حيث أنه من خلاله تم إخراجهما من مدينتهما عنوة ، " مضت سيول البشر تتقاذفهما من جهة إلى أخرى و تدفعهما أمامها نحو الشاطئ ... ، و نظرا إلى الشاطئ ، حيث كانت حيفا تغيم وراء غبش السماء و غبش الدموع "[6] . خرج الزوجان من حيفا عبر الميناء ، دون أن يحسا بذلك حتى ركبا إحدى الزوارق التي ستقلُّهما إلى المنفى .

---

[1] الرواية ، ص 11 .
[2] الرواية ، ص 14 .
[3] الرواية ، ص 13 .
[4] الرواية ، ص 38 .
[5] الرواية ، ص 18 .
[6] الرواية ، ص 22 .

4 – زمكان المنفى في رواية عائد إلى حيفا :

تعرضت رواية ' عائد إلى حيفا' إلى موضوع العودة إلى الوطن بالنسبة للمنفيّ ، و البحث عن الزمن المفقود و المكان المفقود فقد صوّرت ذلك من خلال شخصية سعيد و صفية ، ففكرة العودة إلى حيفا بقيت في عقلهما منذ أن هُجِّرا منها ، " الفكرة التي كانت هناك طوال عشرين سنة قد ولدت ، و لا سبيل إلى دفنها من جديد "[1] . فقصة سعيد و زوجته تعبر عن الفلسطينيين المنفيين الذين حملوا معهم في منفاهم همّ الوطن المفقود ، فبقي الوطن في ذاكرتهم و لم ينفض عنه الغبار بعد ، و العودة إلى الوطن الأم حلم كل فلسطيني . كما صورت لنا خيبة الذين ذهبوا إلى مدنهم بعد أن سمحت لهم إسرائيل و فتحت لهم الأبواب ، لم تكن مدنهم كما رسموها في مخيّلتهم ، و ذلك يتبين من خلال ما قاله سعيد لزوجته : " في القدس و نابلس و هنا يتحدث الناس كل يوم عن نتائج زياراتهم إلى يافا و عكا و تل أبيب و حيفا و صفد و قرى الجليل و المثلث . كلهم يقولون كلاما متشابها و يبدو أن أفكار كل منهم كانت أحسن مما رأوا بأم أعينهم . جميعهم عادوا يحملون خيبة كبيرة . إن المعجزة التي يتحدث عنها اليهود لم تكن إلا وهما . في البلد هنا ردة فعل سيئة جدا ، و هو عكس ما أرادوه حين فتحوا حدودهم أمامنا "[2] .

و قد استعمل كنفاني في هذه الرواية قاعدة الجزء للتعبير عن الكل ، حيث أنه استخدم البيت للتعبير عن الوطن . و البيت الأكثر استخداما في الرواية هو بيت سعيد في حيفا ، فقد وصفه الكاتب من الخارج " يطل بشرفاته المطلية باللون الأصفر "[3] ، " و بدآ يصعدان ، دون أن يترك لها فرصة النظر إلى الأشياء الصغيرة التي كان يعرف أنها ستخضعه و تفقده اتزانه : الجرس ، و لاقطة الباب النحاسية ، و خربشات أقلام الرصاص على الحائط ن و صندوق الكهرباء ، و الدرجة الرابعة المكسورة من وسطها ، و حاجز السلم المقوس الناعم الذي تنزلق عليه الكف ، و شبابيك المصاطب ذات المتصالب ... ، الباب الخشبي المغلق ، المدهون حديثا ، و المغلق بإحكام "[4]،

تفاصيل صغيرة بقيت في الذاكرة لمدة العشرين سنة ، تفاصيل لم يمحها الزمن من الذاكرة على رغم من كل طول مدة الفراق ، تفاصيل لو ترك لها سعيد فرصة لهزّت كيانه ، و قلّبت كل اتزانه و عاد من حيث أتى لكنه

---

[1] الرواية ، ص 25 .

[2] الرواية ، ص 26 و 27 .

[3] الرواية ، ص 28 .

[4] الرواية ، ص 29 .

تمالك نفسه و تشجّع من أجل رؤية ماضيه . و وصفه من الداخل " بدا له المدخل أصغر قليلا مما تصوره و أكثر رطوبة و استطاع أن يرى أشياء كثيرة اعتبرها ذات يوم ، و ما يزال ، أشياءه الحميمة الخاصة التي تصورها دائما ملكية غامضة مقدسة لم يستطع أي كان أن يتعرف عليها أو أن يلمسها أو أن يراها "[1] ، و أمضى غسان في وصفه " ثمة صورة للقدس يتذكرها جيدا ما تزال معلقة حيث كانت ، حين كان يعيش هنا . و على الجدار المقابل سجادة شامية صغيرة كانت دائم هناك .... و حين صار في غرفة الجلوس ، استطاع أن يرى أن مقعدين من أصل خمسة مقاعد هما من الطقم الذي كان له . أما المقاعد الثلاثة الأخرى فقد كانت جديدة ، و بدت هناك فظّة و غير متسقة مع الأثاث . و في الوسط كانت الطاولة المرصعة بالصدف هي نفسها ، و إن كان لونها قد صار باهتا ، و فوقها استبدلت المزهرية الزجاجية بأخرى مصنوعة من الخشب ، و فيها تكومت أعواد من ريش الطاووس ، كان يعرف أنها سبعة أعواد . و حاول أن يعدها ... كانت خمسة فقط . ... الستائر قد تغيرت ، ... التي اشتغلتها صفية ن قبل عشرين سنة ، بالصنارة ن من الخيوط السكرية اللون ، قد اختفت من هناك ، و استبدلت بستائر ذات خطوط زرقاء متطاولة "[2] . ما أصعب رؤية الأشياء الخاصة و هي في يد إنسان أخر ، و أي إنسان إنه عدوه ، فقد انتبه سعيد إلى كل شيء ، انتبه للريشتين المفقودتين ... ، من الممكن أن غسان استخدم هذا الوصف الدقيق ليبين قيمة هذه الأشياء الصغيرة التي فقدها منذ عشرين سنة ، فقد اعتبرها سعيد أشياء تحمل في طياتها معنى الوطن . لكن هل حقا الوطن المفقود هو فقط هذه الأشياء ، فقد بدأت تتشكل ضبابية في نفس سعيد ، و قد قال لزوجته : " أ لم ينتابك ذلك الشعور الرهيب الذي انتابني و أنا أسوق سيارتي في شوارع حيفا ؟ كنت أشعر أنني أعرفها و أنها تنكرني . و جاءني الشعور ذاته و أنا في البيت ، هنا : هذا بيتنا . هل تتصورين ذلك ؟ إنه ينكرنا ! "[3] . إن بعده عن وطنه و غيابه عنه جعله يشعر بأن ذلك الوطن ينكره ، كأنه لم يعش فيه قط ، فجعل من سعيد غريبا لا يعرفه . و مما زاد من غُربتِه رؤيته لابنه خلدون " يلبس بزة عسكرية ، و يحمل قبعته بيده"[4] ، لم يستطع إخفاء تعجبه و دهشته و غضبه من الأمر فقال لميريام : " هذه هي المفاجأة ؟ أهذه هي المفاجأة التي أردت منا انتظارها ؟" [5] . و قد زاد النقاش الذي دار بينه و بين ابنه خلدون من حِدّة شعوره بالنكران . فعندما علم دوف أن والديه الأصليين حضرا قال لميريام : " أنا لا أعرف أُما غيرك . أما أبي فقد

---

[1] الرواية ، ص 31/30 .

[2] الرواية ، ص 32/31 .

[3] الرواية ، ص 49 .

[4] الرواية ، ص 60 .

[5] الرواية ، ص 61 .

قُتل في سيناء قبل 11 سنة و لا أعرف غيركُما "[1] ، هنا تظهر حقيقة و مبتغى اليهود ، ألا و هو طمس الهوية الفلسطينية ، و محو الذاكرة و التاريخ و ممارسة التطهير العرقي لأهل هذا البلد ، و قال أيضا دوف: " و ماذا جاءا يفعلان ؟ لا تقولي أنهما يريدان استرجاعي ! و قالت ميريام : اسألهما ، و استدار كقطعة خشب ، كأنه ينفذ أمرا ، و سأل سعيد : ماذا تريد يا سيدي ؟ و ظل سعيد محتفظا بهدوئه الذي بدا له لحظتذاك مجرد قشرة رقيقة تخفي لهبا كامنا ، و بصوت خفيض قال :لا شيء لا شيء انه مجرد فضول ، كما تعلم "[2] ، بدا دوف كأنه ربوت ينفذ الأوامر فقط ، فهو لا يعرف الصواب من الخطأ ، يفعل ما تم تزويده به فقط ، حيث لا قرار عنده من تلقاء نفسه ، و بعدها دخل دوف في نقاش طويل مع سعيد ، قال سعيد

" أنت في الجيش ؟ من تحارب ؟ لماذا ؟

و انتفض الشاب واقفا فجأة : ليس من حقك أن تسأل هذه الأسئلة . أنت على الجانب الآخر .

أنا ؟ أنا على الجانب الآخر ؟

و ضحك بقوة ، و شعر بأنه عبر تلك القهقهة العالية كان يدفع بكل ما في صدره من أسى و توتر و خوف و فجيعة إلى الخارج ، و رغب فجأة في أن يظل يقهقه و يقهقه حتى ينقلب العالم كله ، أو ينام ، أو يموت ، أو يندفع خارجا إلى سيارته "[3] .

من بداية النقاش تبين أن تشكيل شخصية الإنسان لا يُهِمُها لا الدم و لا اللحم المتوارث عبر الأجيال ، ضربة مريرة تلقاها سعيد . و واصلا النقاش ،

" قال الشاب ن و قد تغير صوته تماما : " دعونا نتحدث كأناس متحضرين .

و أخذ سعيد يضحك مرة أخرى ، ثم قال : أنت لا تريد أن تفاوض ... أليس كذلك ؟ كنت تقول أنك ، أو أنني ، في الجهة الأخرى ماذا حدث ؟ هل تريد أن تفاوض أم ماذا ؟

---

[1] الرواية ، ص 61 .

[2] الرواية ، 62 .

[3] الرواية ، ص 63 .

و عاد الشاب فوقف ، و أخذ يتحدث و كأنه حضر تلك الجمل منذ فترة طويلة : أنا لم أعرف أن ميريام و ايفرات ليسا والدي إلا قبل ثلاث أو أربع سنوات . منذ صغري و أنا يهودي . أذهب إلى الكنيس و إلى المدرسة اليهودية و آكل الكوشير و أدرس العبرية . و حين قالا لي – بعد ذلك – أن والدي الأصليين هما عربيان ، لم يتغير أي شيء . لا ، لم يتغير . ذلك شيء مؤكد ... أن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية .

من قال ذلك ؟

قال ماذا ؟

من الذي قال إن الإنسان هو قضية ؟

لا أعرف ، لا أذكر لماذا تسأل ؟

لمجرد الفضول ، الصحيح لمجرد أن ذلك هو بالضبط ما كان يدور في بالي هذه اللحظة .

إن الإنسان هو قضية ؟

بالضبط .

إذن لماذا جئت تبحث عني ؟

لست أدري . ربما لأنني لم أكن أعرف ذلك . أو كي أتأكد منه أكثر . لست أدري "[1] .

بعدها دخل دوف في مجموعة اتهامات ، و بدأ يصدر أحكام دون أن يستمع لكلا الطرفين ، دوف قال فقط ما تم تغذيته به و ما تم تعليمه منذ صغره ، و لم يبحث أبدا عن الحقيقة الأصلية. و يبدو أنه بقي صغيرا رغم مرور عشرين سنة ، لم يعرف أن المنفيّ لا يحق له أي حتى حقه ، فإسرائيل تأخذ حقوق الفلسطيني و تضمها إلى حقوقها ، بعدها تعطي الفلسطيني من الحق الذي أخذته منه ، و تبقى تنتظر الشكر على سخائها ، و أي سخاء ، و هذه هي الحقيقة التي لم يدركها دوف حين بدأ يصدر القرارات التي تم زرعها في رأسه ، لكن هو غير ملام على ما كان يتكلم فيه لأنه هذا الذي تم زراعته في عقله عندما كان صغيرا ، و كما يقال التعلم في الصغر كالنقش على الحجر ، و نفس الشيء ينطبق على حالة خلدون أو دوف ، تم تعليمه حمل الضغينة تجاه الفلسطيني . سعيد

[1] الرواية ، ص 65/64 .

الذي بنى أمالا كبيرة باسترجاع الوطن بطريقة سلمية ، و بعدما كان يعتبر الوطن هو صورة القدس المعلقة ، ريش الطاووس ، الشرفة ، خلدون ... ، قد تغيرت وجهة نظره للأشياء ، و خاصة وجهة نظره للوطن ، فقد اكتشف أنه مخطئ في نظراته و فيما كان يفكر . و عاد قائلا لزوجته صفية : " أتعرفين ما هو الوطن يا صفية ؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله . كنت أتساءل فقط ، أفتش عن فلسطين الحقيقية . فلسطين التي هي أكبر من ذاكرة أكثر من ريش طاووس ، أكثر من ولد ، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم . و كنت أقول لنفسي ما هي فلسطين بالنسبة لخالد ؟ أنه لا يعرف المزهرية ، و لا الصورة ، و لا السلم و لا الحليصة و لا خلدون ن و مع ذلك فهي بالنسبة له جديرة بأن يحمل المرء السلاح و يموت في سبيلها . و بالنسبة لنا ، أنت و أنا ، مجرد تفتيش عن شيء تحت غبار الذاكرة ، و انظري ماذا وجدنا تحت ذلك الغبار غبارا جديدا أيضا ! لقد أخطانا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط ، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل"[1]. أدرك سعيد خطأه و تقبله ، و عرف أنه لاسترجاع الوطن يجب حمل السلاح ، و الفداء من أجل الوطن هي شرف كل فلسطيني ، و قال سعيد لصفية : " أرجو أن يكون خالد قد ذهب أثناء غيابنا "[2] . عرف أن الانضمام إلى المقاومة شرف يُفتخر به .

و غسان في رواية ' عائد إلى حيفا ' عبّر عن الوطن المفقود من خلال البيت و من خلال خلدون أيضا ، فخلدون أو دوف هو جسم فلسطيني –بيولوجيا – يحمل شخصية يهودية ، لا نقول روحا يهودية لأنه لم يختر أن يكون ما عليه . أو بمعنى آخر خلدون وجدوه أرضا خصبة لم يتم الزراعة فيه أبدا ، فقاموا بزراعة ثقافتهم و عاداتهم و تفكيرهم ... فيه ، و عندما كبُر الطفل الصغير نما في تلك الأرض ما تم زراعته ، فاعتبروا أن تلك الأرض – خلدون – لهم و من حقهم. و نفس الشيء بالنسبة لفلسطين ، فهي من حق الفلسطيني لكنهم أخذوها بالقوة ، و جعلوها ملكا لهم .

[1] الرواية ، ص 75/74 .

[2] الرواية ، ص 76 .

خاتمة

توصلنا في بحثنا هذا إلى هذه النقاط :

1. تقارب المفهوم اللغوي و المفهوم الاصطلاحي للمنفى في المعنى ، فكلاهما يصبان في معنى البعد عن الوطن .
2. المنفى يحمل كل مشاعر الألم ، فالمنفيّ في غربته يحنّ دائما لوطنه ، و يهتف قلبه شوقا له .
3. المنفى موضوع أدبي حساس ، سواء في الشعر أو النثر . فهو موضوع يكتب خارج الوطن ، فيوضح فيه الإنسان ما يعانيه في غربته ، من مشاعر الألم ، و الحسرة على فراق الأهل و الأحبة و الوطن بشكل خاص .
4. شعر المنفى له جذور قديمة جدا ، فهو معروف منذ القدم . فقد رافق جميع العصور الأدبية للشعر العربي ، ابتداء من العصر الجاهلي وصولا إلى عصرنا الحالي . هذا الشعر مليء بالعواطف الجياشة ، لأنه نابع من أفئدة سالت دما لفراقها عن الوطن . فشعراءه قد تركوا موطن صباهم و أيام أنسهم ، فتفجّرت قرائحهم في هذا الغرض الشعري . تعتبر القصائد التي نظمت في الحنين إلى الأوطان في العصر الأندلسي من أصدق ما قيل في هذا الغرض ، و نونية الرندي من أروع ما قيل في رثاء المدن ، فقد بقيت حيويتها إلى وقتنا .
5. المنفى في الرواية يمكن اعتباره تجربة شخصية عن الكاتب ، فهو يعتمد كثيرا على الصور التي بقيت في عقله في تأليف روايته ، فانطلاقا مما عاشه سارت كلماته . فتعصف النوستالجيا بالرواية ، و لذلك تغلب فيها تقنية الاسترجاع .
6. القضية الفلسطينية خير مثال لرواية المنفى ، فهي الأنموذج الصحيح لها . فالواقع الفلسطيني يعطي مفهوما صحيحا للمنفى ، لأن الفلسطيني يتم تهجيره بشكل قسري ، فيبقى في حسرة دائمة ، و في شوق و حنين دائمين للوطن .

7. غسان كنفاني عاش تجربة المنفى بكل تجلياتها قبل أن يعالجها في إبداعاته الأدبية ، فهو مثل سائر الفلسطينيين ، فذاق نفس التعسف و القهر و الظلم . فأنتج للثقافة العربية عامة و للثقافة الفلسطينية ما يرفع من شأنهما . فكل رواياته جعلت القضية الفلسطينية موضوعها الأول .
8. رواية ' عائد إلى حيفا ' مثال حيّ للمنفى ، حيث أن كنفاني صور الواقع الفلسطيني في تلك الحقبة الزمنية ، فجسد لنا مآسي نكبة 1948 ، و ما خلّفته على النفس الفلسطينية من عذاب و آلام و جروح لا تُشفى .
9. غسان كنفاني ركّز كثيرا على الزمن الماضي في رواية ' عائد إلى حيفا ' ، و هو ما يبين تيمة المنفى في هذه الرواية ، فاستخدم غسان تقنية الاسترجاع بكثرة ليبرز ذلك .
10. يمثل الماضي العقدة الأساسية في رواية ' عائد إلى حيفا ' ، فهو يمثل الآلام و الأحزان و الفقدان و الذكريات المريرة المؤلمة .
11. في هذه الرواية نرى أنه عند العودة إلى الوطن ، يصدم المنفيّ بجدار جبّار من النكران سواء من الأهل أو الوطن ، حيث أنه يجد كل شيء تغير و تبدل عما تركه ، و هذا أصعب ما يمكن أن يحدث للإنسان .
12. رواية ' عائد إلى حيفا ' لغسان كنفاني وضّحت المفهوم الصحيح للوطن ، فهي تقول أن الوطن ليس تلك الذكريات التي يخزنها المنفيّ في ذاكرته و يحملها معه أينما حلّ ، و إنما الوطن هو صناعة المستقبل ز هذه الرواية تدعو للتضحية بالنفس من أجل الوطن ، فالانضمام للمقاومة و الفداء من أجل الوطن شرف يفتخر به الفلسطيني .

13. و أخر نتيجة و أهمها هي أن إسرائيل نجحت في تحويل قصتها المزيفة إلى تاريخ ، فبنت لنفسها هوية و ثقافة في أرض ليست من حقها ، في أرض اغتصبتها . فمحت تاريخ فلسطين ، و طمست هوية و ثقافة فلسطين .

ملخص الرواية

تعبر رواية "عائد إلى حيفا" عن حالة الفلسطيني ، و معاناته مع الكيان الصهيوني الذي أرغمه

على مغادرة وطنه ، سواء داخل فلسطين – من مدينة إلى أخرى – أو خارج فلسطين . كما أن غسان كنفاني ترجم في روايته هذه ، لهفة و شوق الفلسطيني لرؤية وطنه الحبيب . الذي لم يستطع إخراجه من عقله في منفاه . فالفلسطيني المنفي لم يقدر على نسيان وطنه الأم ، بكل تفاصيله ، سواء كانت صغيرة أم كبيرة . و قد تجسد هذا كله عبر الشخصيتين الرئيسيتين ، سعيد و زوجته صفية .

تدور أحداث الرواية في مدينة حيفا التي عاش فيها سعيد و زوجته قبل القصف ، بعدها استقرا في مدينة رام الله .

بدأت أحداث الرواية في صباح الأربعاء 21 نسيان 1948 ، أين تم قصف مدينة حيفا من قبل اليهود . فتم إخراج الفلسطينيين من بيوتهم ، فدفعوا دفعا نحو الشاطئ ، أين تتواجد الزوارق التي ستحملهم إلى الضفة الغربية ، و قد كان من بين هؤلاء الفلسطينيين الزوجان سعيد و صفية . لكن سعيد و صفية قاوما – بكل ما فيهما من قوة — ذلك السيل العارم من الناس من أجل الرجوع إلى البيت لأخد ابنهما – خلدون الذي أتم

في ذلك اليوم شهره الخامس – الذي تركاه داخل البيت ، لكن لم يفلحا في المقاومة و الرجوع إلى بيتهما ، فتم دفعهما مع السيل إلى الزوارق . و في الضفة الغربية استمر سعيد في المحاولة للرجوع إلى حيفا للبحث عن ابنه ،

و كل المحاولات باءت بالفشل . فحملا معهما خيبة و حزنا كبيرين داخل قلبيهما ، فأحس الزوجان بذلّين ، ذل تركهم لابنهم و ذل تركم حيفا لليهود .

اتخذ سعيد و زوجته مدينة رام الله مستقرا لهما ، فأعاد بناء حياتهما ، فأنجبا ثلاث أولاد ، و بقي خلدون محفورا في الذاكرة طيلة العشرين سنة ، فلم يتكلما عنه .

لكن في أحد الأيام تشجعت صفية و تجرأت ، أن لمحت لزوجها عن حيفا – غايتها من حيفا هو خلدون بصفة خاصة – فأخذ سعيد يتهرب من الموضوع و يماطل فيه ، و في نهاية الأمر خضع لرغبة زوجته بالعودة إلى حيفا لرؤيتها ، و رؤية بيتهما و لعلهما يجدان خلدون ، و في حقيقة الأمر كانت رغبته هو أيضا .

في يوم الثلاثين من حزيران 1967 ، انطلق سعيد بسيارته مع صفية إلى حيفا . طوال الطريق لم يكفا عن الكلام ، فقد تتحدثا عن كل شيء ، عن الحرب و الهزيمة و عن بوابة مندلبوم ... ، لكنهما لم يتطرقا أبدا طيلة حديثهما إلى موضوعهما الأساسي – خلدون – الذي جاءا من أجله من رام الله إلى حيفا .

و عندما وصلا إلى مشارف حيفا ، إلى أول بيت غاليم صمتا معا ، فبدأ الماضي يتداخل مع الحاضر ، فشرعت الذاكرة بالعودة إلى الوراء ، فبدأ كل منهما باسترجاع أحداث ذلك اليوم المشئوم . تذكرا خلدون موضوعهما الرئيسي ، في تلك اللحظة أضحيا صامتين ، ينظران إلى الطرق التي يعرفانها جيدا ، التي رسخت صورها في ذهنهما رغم الفراق و البعد .

و لما وصلا إلى منزلهما طرقا الباب ، ففتحت ميريام – المرأة اليهودية التي استولت على بيتهما مع زوجها الذي قُتل – الباب ، فدخلا و تفحصا منزلهما بكل دقّة ، فنظرا إلى كل تفاصيله التي تركاها و رائهما ، فرأيا أن هذه المرأة قد استحوذت على البيت ، و كل ما فيه من أملاكهما الحميمة الخاصة ، و بعدها أدركا أن ابنهما خلدون أصبح اسمه دوف . فدار حديث مطول في ذلك البيت عن كيفية انتقالها إلى بيتهما و عن كيفية تبنيها لخلدون ، و في نهاية النقاش اقترحت ميريام أن يتركوا القرار النهائي لدوف فهو صاحب القرار . هذا الاقتراح لم يرق لسعيد أبدا ، فهو تفطن إلى أن هذه العجوز ، إن كانت قد استحوذت على البيت و ما فيه ، فإنها أيضا استحوذت على ابنهما خلدون .

عندما وصل خلدون لم تسره زيارة والديه الحقيقيين ، فبدأ في مناقشة سلبية معهما ، أنه وصفهما بالجبناء ، و عديمي المسؤولية ... ، عندها تيقن سعيد و فتح عينيه على الحقيقة المرة ، التي هي أن الإنسان عبارة عن قضية فهو ليس بدم و لحم يتوارث عبر الأجيال ، و أن المرء هو ما يحقن به . فأخبر زوجته أنه ما كان عليهما العودة إلى نفض غبار الماضي ، لأنه كان عليهما التركيز على الحاضر و المستقبل ، و ترك الماضي الذي مضى و انتهى . فانصرف سعيد مع صفية من ذلك البيت ، فاتخذا طريق العودة إلى رام الله و إلى أولادهما الثلاثة.

إن هذه الرواية جسدت الواقع الفلسطيني بشكل واضح ، فقد شمل غسان كنفاني بكل أطراف و تمفصلات ذلك الواقع ، فصوره تصويرا دقيقا فهو لم يغفل عن أي شيء ، حيث أنه أحاطنا بكل التفاصيل ، الصغيرة و الكبيرة . التي تشوق القارئ من أجل إنهائها ، و التي تحفزه على إعادة قراءتها . ففي كل مرة تقرأها تكتشف خبايا جديدة لم تكن موجودة في القراءة الأولى .

قائمة المصادر و المراجع

المصادر:

1. كنفاني ،. غسان ، عائد إلى حيفا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت/لبنان ، ط6 ، 2004 .

المراجع العربية :

1. إبراهيم جبرا، جبرا ، البحث عن وليد مسعود ، مكتبة الشرق الأوسط ، بغداد/العراق ، ط3 ، 1935 .

2. ابن خفاجة ، إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله ، ديوان ابن خفاجة ، تح مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية/مصر ، د ط ، 1960 .

3. ابن زيدون ، أحمد بن عبد الله ، شعر ابن زيدون ، تحقيق كرم البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت / لبنان ، د ط ، د ت .

4. ابن سلام الجمحي ، محمد ، طبقات الشعراء ، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان ، 1422هـ/2001م .

5. ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم ، الشعر و الشعراء ، تح أحمد محمد شاكر ، ج1 ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، د ط ، د ت .

6. أحمد خليل ، أحمد ، موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين ، ج 2 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، دار فارس ، بيروت/لبنان ، عمّان/الأردن ، ط1 ، 2001 .

7. احمد مكي ، الطاهر ، دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ و الفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، ط3 ، 1987 .

8. البارودي ، محمود سامي ، ديوان البارودي ، تح علي الجازم / محمد شفيق معروف ، دار العودة ، بيروت/لبنان ، د ط ، 1998 .

9. بحراوي ، حسن ، بنية الشكل الروائي الفضاء الزمن الشخصية ، المركز الثقافي ن بيروت/لبنان ، الدار البيضاء/المغرب ، ط1 ، 1990 .

10. بوعزة ، محمد ، تحليل النص السردي تقنيات و مفاهيم ، دار الآمان ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الرباط/المغرب ، الجزائر العاصمة/الجزائر ، بيروت/لبنان ، ط1 ، 1431هـ/2010م .

11. الجبوري ، يحيى ، الحنين و الغربة في الشعر العربي الحنين الى الأوطان ، دار مجدلاوي للنّشر و التوزيع ، عمّان/الأردن ، ط1 ، 1428هـ/2008م .

12. الحديدي ، علي محمد ، محمود سامي البارودي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة/مصر ، د ط ، 1967 .

13. الخشروم ، عبد الرزاق ، الغربة في الشعر الجاهلي (دراسة) ، منشورات إتحاد الكُتاب العرب ، دمشق/سوريا ، د ط ، 1982 .

14. الداية ، محمد رضوان ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، مكتبة سعد الدين ، بيروت/لبنان ، ط1 ، ط2 ، 1396هـ/1976م ، 1406هـ/1986م .

15. الداية ، محمد رضوان ، في الأدب الندلسي ، دار الفكر ، دمشق/سوريا ، ط 1 ، د ت .

16. الدسوقي ، عمر ، محمود سامي البارودي ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، د ط ، د ت .

17. دكروب ، محمد ، غسان (فارس فارس) كنفاني في كتابته الساخرة ... الجادّة ، دار الآداب ، بيروت/لبنان ، ط1 ، 1996 .

18. رجب ، محمود ، الاغتراب سيرة مصطلح ، دار المعارف ، القاهرة /مصر ، ط3 ، 1988 .

19. الركابي ، جودت ، في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، القاهرة/مصر ، ط2 ، 1966 .

20. الزوزني ، الحسين بن أحمد بن الحسين ، شرح المعلقات السبع ، مكتبة الحياة ، بيروت/لبنان ، د ط ، د ت.

21. سعيد ، أمين ، شرح ديوان عنترة بن شداد ، دار المطبع العربية ، مصر ، د ط ، د ت .

22. الشحات ، محمد ، سرديات المنفى ، الرواية العربية بعد عام 1967 ، دار أزمنة للنّشر و التوزيع ، عمّان/الأردن ، ط1 ، 2006.

23. شرقاوي ، أدهم ، قس بن ساعدة ، الأم في أدب غسان كنفاني أم سعد أنموذجا ، تدقيق ماجد مقبل ، دار كلمات للنشر و التوزيع ، الكويت ، ط1 ، 2014 .

24. شوقي ، أحمد ، شوقيات ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة/مصر ، د ط ، د ت .

25. ضيف ، شوقي ، شوقي شاعر العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة/مصر ، د ط ، 2010 .

26. عباس ، إحسان و آخرون ، غسان كنفاني إنسانا و أديبا و مناضلا ، منشورات الإتحاد ، تونس ، د ط ، د ت .

27. عبد الغني ، مصطفى ، المقاومة و المنفى في الرواية الفلسطينية ، دار الكرز ، القاهرة/مصر ، ط 1 ، 2012 .

28. عيسى ، فوزي ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، الإسكندرية / مصر ، ط1 ، 2007م .

29. فوغالي ، باديس ، الزمان و المكان في الشعر الجاهلي ، عالم الكتب الحديث ، إربد الأردن ، د ط ، 2008 .

30. كنفاني ، غسان ، أم سعد ، منشورات الرمال ، قبرص ، د ط ، 2013 .

31. كنفاني ، غسان ، ما تبقى لكم ، دار منشورات الرمال ، قبرص ، ط 1 / 2 ، 2013 / 2014 .

32. كنفاني، غسان ، رجال في الشمس ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء ، ط2 ، 1970 .

33. منيف ، عبد الرحمن ، شرق المتوسط ، المكتبة العالمية ، بيروت/لبنان ، د ط ، د ت .

34. وادي ، فاروق ، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية غسان كنفاني اميل حبيبي جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت/لبنان ، ط 1 ، 1981 .

مراجع مترجمة :

1. سعيد ، إدوارد ، صور المثقف – محاضرات ريث سنة 1993 - ، ترجمة غسّان غصن ، مراجعة منى أنيس ، الدار النهار ، بيروت/لبنان ، ط3 ، 1997 .

المعاجم العربية :

1. ابن زكريا ، أبو الحسن أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تح عبد السلام محمد هارون ، ج 5 ، دار الفكر ، دمشق/سوريا ، د ط ، 1399هـ/1979م .

2. ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، ج15 ، دار الطباعة و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1999 .

3. الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، تح مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، إشراف محمد العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت/لبنان ، ط8 ، 1426هـ/2005م .

4. مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة/مصر ، ط4 ، 1425هـ/2004م .

مجلات :

1. عبد الله بن صفية ، إشكالية الاغتراب في رواية رجال في الشمس لغسان كنفاني سيرورة السرد و سؤال الكينونة ، مجلة آفاق للعلوم ، ع7 ، جلفة/الجزائر ، مارس 2017 .
2. جبر فريحات ، مريم ، الحس الإغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني ، مجلة جامعة دمشق ، مجلد 26 ، ع 3 / 4 ، دمشق/سوريا ، 2010 .
3. مرتاض ، عبد المالك ، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد ، مجلة عالم المعرفة ، ع 240 ، الكويت ، ديسمبر 1998 .

رسائل و أطروحات جامعية :

1. صيام ، محمد الشيخ محمود ، طرفة بن العبد حياته و شعره ، الماجستير في الأدب ، مكة المكرمة ، 1399هـ - 1400هـ / 1979م-1980م .
2. عويض العماوي ، نضال عليان ، الغربة و الحنين في شعر أحمد شوقي دراسة وصفية تحليلية ، ماجستير ، غزة/فلسطين ، 1438هـ/2015م .
3. كروم ،بومدين ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، درجة الماجستير ، دمشق/سوريا ، 1403هـ/1983م .

مواقع إلكترونية :

1. يعقوب ، أوس داود ، الشهيد غسان كنفاني ... ظل الغياب ، موقع ديوان العرب ، الخميس 21 تموز (يوليو) 2011 .

موقع ويكيبيديا ،
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%85%D9%86_%D9%85%D9%86%D9%8A%D9%81

الفهرس

الفهرس :

العنوان	الصفحة
مقدمة	أ – ت
الفصل الأول : حضور المنفى في الشعر العربي و المنفى العربي	
1 – ضبط المفاهيم	
1 – 1 - مفهوم المنفى	
1 – 1- 1 – لغة	3
1 – 1 -2 – اصطلاحا	4
1- 2 - مفهوم الغربة	
1-2- 1 – لغة	5
1 – 2 – 2 – اصطلاحا	6
1 – 3 – مفهوم الحنين	
1 – 3 – 1 – لغة	6
1 – 3 – 2 – اصطلاحا	7
2 – تيمة المنفى في الشعر العربي	
2 – 1 – تيمة المنفى في الشعر الجاهلي (المقدمة الطللية)	9
2 – 2 – تيمة المنفى في الشعر الأندلسي (الحنين إلى الأوطان)	15
2 – 3 – تيمة المنفى في الشعر الحديث	23
3 – تيمة المنفى في النثر العربي	
3 – 1 – تيمة المنفى في الرواية العربية	28
3 – 2 – تيمة المنفى في الرواية الفلسطينية	34
3 – 3 – تيمة المنفى في روايات غسان كنفاني	37
الفصل الثاني : زمكان المنفى في رواية عائد إلى حيفا	
1 - غسان كنفاني ، حياته و أعماله	
1 – 1 – حياة غسان كنفاني الشخصية	45
1 – 2 – حياة غسان كنفاني العملية	47

1 – 3 – إبداعات غسان كنفاني الأدبية	50
2 - الزمن في الرواية	
2 – 1 -مفهوم الزمن	
2 – 1 – 1 -لغة	53
2 – 1 – 2- اصطلاحا	53
2 – 2 - آليات الزمن	
2 – 2 – 1 المفارقات الزمنية	55
2 – 2 – 2 - الإيقاع الزمني	55
2 – 3 - الزمن في رواية عائد إلى حيفا	56
3 - المكان في الرواية	
3 – 1 - مفهوم المكان	
3 – 1 – 1 - لغة	62
3 – 1 – 2 - اصطلاحا	63
3 – 2 – المكان في رواية عائد إلى حيفا	
3 – 2 – 1 المكان المغلق في رواية عائد إلى حيفا	
3 – 2 – 1 – 1 – البيت	64
3 – 2 – 1 – 2 – نزل المهاجرين	65
3 – 2 – 1 – 3 – السيارة	66
3 – 2 – 2 - المكان المفتوح في رواية عائد إلى حيفا	
3 – 2 – 2 – 1 المدينة	67
3 – 2 – 2 – 2 – الشارع و الطريق	68
3 – 2 – 2 – 3 – الميناء	69
4 – زمكان المنفى في رواية عائد إلى حيفا	70
خاتمة	75
ملخص الرواية	79
قائمة المصادر و المراجع	83

ملخص :

إن دراسة موضوع تيمة المنفى في رواية ' عائد إلى حيفا ' لغسان كنفاني تهدف إلى كشف عن مظاهر المنفى في الرواية . تضمنت هذه الدراسة مقدمة و فصلين و خاتمة .

تناولنا في الفصل الأول الذي جاء عنوانه حضور المنفى في الشعر العربي و الرواية العربية ، فقمنا في هذا الفصل بتقديم مفهوم للمنفى ، ثم قمنا بدراسة حضور المنفى في الشعر العربي و الرواية العربية .

أما الفصل الثاني الذي جاء بعنوان زمكان المنفى في رواية عائد إلى حيفا . فقد تطرقنا فيه أولا إلى حياة غسان كنفاني ، بعدها درسنا الزمن و المكان في الرواية ، و في الأخير تطرقنا إلى كيفية حضور زمكان المنفى في رواية عائد إلى حيفا .

و في الخاتمة أهم النقاط التي توصلنا إليها .

الكلمات المفتاحية :

المنفى ، الوطن ، غسان كنفاني ، عائد إلى حيفا ، البعد ، الحنين .

L'étude du sujet de Theme de Exile dans le roman de Ghassan Kanafani « Rapatriement à Haïfa » vise à révéler les manifestations de l'exil dans le roman. Cette étude comprenait une introduction, deux chapitres et une conclusion.

Dans le premier chapitre, intitulé La présence de l'exil dans la poésie arabe et Le roman arabe, nous avons présenté dans ce chapitre un concept d'exil, puis nous avons étudié la présence de l'exil dans la poésie arabe et le roman arabe.

Le deuxième chapitre, intitulé L'espace de l'exil, est un roman de rapatrié à Haïfa. Nous avons d'abord abordé la vie de Ghassan Kanafani, puis nous avons étudié le temps et l'espace dans le roman, et à la fin nous avons abordé de la façon d'assister à l'espace de l'exil dans un roman de rapatriement à Haïfa.

Et en conclusion, les points les plus importants que nous avons atteints.

Les mots clés :

L'exil , La patrie , Ghassan Kanafani , Rapatriement à Haïfa , L éloignement , Nostalgie.